الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز








قصص

أمبارو دابيلا

# حين تقطعت الأوصال

ترجمة: محمد ابراهيم مبروك

● أمبارو دابيلا

● كاتبة مكسيكية ولدت عام ١٩٢٨.
● واحدة من أهم كاتبات أمريكا اللاتينية في القرن العشرين.
● ساهمت كتاباتها في دفع موجة التجديد بالقارة. وبرغم قلة إنتاجها الذي لم يتجاوز الثلاث مجموعات قصصية هي: "حين تقطعت الأوصال" و"موسيقى حية"، و"أشجار متحجرة" إلا أنها تلقب في أمريكا اللاتينية بـ "الماستر" ويعتبرونها من أوائل المؤسسين للكتابة الجديدة ومن أهم الكاتبات في القارة.

جائزة "بيياوروتيا" للآداب.

وهي جائزة تمنح من الكُتاب إلى الكُتاب وتهدف إلى تقدير ونشر الإنتاج الأدبي المكسيكي. تأسست في المكسيك عام ١٩٥٧ بمبادرة من الناقد الأدبي "فرانسيسكو زنديخاس". منحت في أول دورة لها للكاتب المكسيكي الشهير "خوان رولفو" عن روايته "بيدروبارامو". ظلت في البداية باسم جمعية أصدقاء "خابيير بيياوروتيا". ثم اتخذت اسم جمعية "ألفونسو" العالمية. وتمنح الآن باسم جمعية "ألفونسو" والمجلس القومي للثقافة والفنون من خلال المعهد القومي للفنون الجميلة وأحيانًا ينال الجائزة أكثر من كاتب. وأحيانًا تحصل عليها مجموعة أعمال كاتب بعينه إن رأى ذلك للجنة التحكيم.

# حين تقطعت الأوصال

دابيلا ، امبارو
حين تقطعت الأوصال : قصص / أمبارو دابيلا ؛ ترجمة : محمد إبراهيم مبروك. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٨.
١٠٢ ص ؛ ٢٢ سم
تدمك ٤ ٢٨٧ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
( أ ) مبروك ، محمد إبراهيم (مترجم)
( ب ) العنوان :
رقم الإيداع بدار الكتب ٧٢٨٧/ ٢٠٠٨
I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 287 - 4
ديوى ٨٢٣

# حين تقطعت الأوصال

قصص

أمبارو دابيلا

ترجمة : محمد ابراهيم مبروك



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

● الكتاب: **حين تقطعت الأوصال** Tiempo Desatrozado

● الكاتبة: أمبارو دابيلا Amparo Dávila

● ترجمة: **محمد إبراهيم مبروك**

● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.



● **الطبعة الأولى ٢٠٠٨.**

● **طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.**

# «سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

**متخصصة**، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية **لأهم** الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

**د. ناصر الأنصارى**

# إهـــــداء

لك يا أمبارو دابيلا...

ولقارتك، قارة أمريكا اللاتينية...

القارة التى تقلقنا من نومنا، وتوقظنا الآن لنلتفت فجأة إلى براكينها المتفجرة، واندفاعات سيول الذهب المنصهر وهى تجتاح ملتهبة وجه القارة؛ فتعرق عيوننا، نحن شعوب العالم، إذ تمنحنا براكينكم، بدلا من الذهب المسروق، ذهب إبداعاتكم التى: لم، ولا، ولن تنفد، أو ينطفئ بريقها! لك يا أمبارو..

ولكل من أحببتهم من كُتاب لغتك؛ أفتح أبواب قلبى، لتسكنوا فيه، ولتسكنوا لغتى!

**محمد إبراهيم مبروك**

# Dedicatoria

Para ti Amparo Davila... Para tu Continente, el de America Latina, el Continente que nos inquieta del sueno y nos despierta ahora, y de repente nos damos cuenta de sus volcanes explosivos y de las corrientes torrenciales del oro derretido, que conquista con su rojo la faz del Continente. Asi a nosotros, todos los pueblos del mundo nos brillan Jos ojos. Y nos da sus volcanes en vez del oro robado, nos da el oro de sus creaciones que no se han agotado, ni agotan ni agotarany y su brillo nunca se apagara...

Para, ti Amparo...y para todos los que he amado de los escritores de tu idioma, os abro las puertas de mi corazon para que lo habiten y para que habiten mi lengua!!!

**Mohamed Ibrahim Mabrouk**

escritor egipcio y traductor del espanol

El Cairo, Noviembre 2007.

# أيام منزوعة من مفكرة امرأة

* الإثنين ٧ يوليو

جارى السيد روخاس يبدو مذهولاً كلما وجدنى جالسة على بسطة السلم. ومن المؤكد أن ما يثير انتباهه، الحزن الظاهر فى نظرتى، وتقديره لى فى أننى مهتمة طوال حياتى بأن أستيقظ مبكرة، ودائمًا أحب التطلع إلى السلالم بناسها الطالعة وهى تلتقط أنفاسها بمشقة، والناس النازلة ككتلة عديمة الشكل تكاد تنكفئ وهى تهوى بلا صوت، وربما لهذا السبب، اخترت السلالم لأقضى عليها وقتى، ولأحتمل ما أعانيه.

* الخميس ١٠ يوليو

اليوم صممت، بشكل صارم، علىَّ أن أنتهى من شغل البيت كله، فرتبت الشقة، وغسلت ملابسى

الداخلية، وجهزت الأكل، ونظفت "بيبة" الحمَّام. أردت بهذا أن أوفر وقتًا أكبر لأفضل برنامج، وأختار التمارين التى لابد أن أقوم بها. وفيها ما يكفى من الألم طوال فترة التمرين، ولكن لابد من القيام به بالتدريج وبانتظام كما لو أنه عقوبة وعلىَّ أن أقضيها..

لقد ظل جارى يراقبنى لفترة طويلة؛ تحت النور الأصفر لمركز العلاج من الأمراض المعدية. وكان يلزم أن أبدو وقد تحسنت حالتى الصحية، وحللت المشكلة، ولكن التمرين اليومى الموجع جعل نظرته إلىَّ كمن ينظر إلى كلب ضال، أو شبح.

* السبت ١٢ يوليو

وقعت نظرته على من جديد بإلحاح. وقفز السؤال المخيف من السيد روخاس. لا فائدة من أن أرد عليه. وتركته ينزل وسط شكوكه وواصلت أنا تمارينى. عندما سمعت خطوات طالعه، اجتاحت بدنى رعشة. أنا أعرفهم جيدًا، كفاى والصدغان بدأ العرق يغمرهم، وقلبى أخذ يدق بضربات يائسة غير منتظمة، ونشف لسانى وبدا كورقة ناشفة. ولو كنت وقفت على قدمى، كنت وقعت من طولى مثل العروسة اللعبة.

ابتسمت هى عند مرورها بى... وتظاهرت أنا بأننى لم أرها. وواصلت التمرين مع نفسى.

* الخميس ١٧يوليو

كنت بالضبط فى الدرجة السابعة من سلم العذاب، عندما حدث أن قطع علىَّ بطريقة مؤلمة جارى المواظب على صعود السلم وبصحبته امرأة. مرَّا علىَّ قريبين جدًا منى للدرجة التى جعلت ثيابهما تحتَكُّ بى. بقيت وعطر المرأة يملأ أنفى، خليط من رائحة المسك واللبان، كانت لزجةً، وغامضة، ريانةً، ومتنمرة. لبسها كان على المودة؛ فستان أحمر حلو التفصيل ومجسّمٌ على جسمها. ظللت أتابعها بنظراتى حتى اختفيا وراء باب الشقة. كانا يتحدثان وهما يضحكان عند طلوعهما السلم. يضحكان بأعينهما، وبأيديهما. كانا غارقين فى غرام متبادل بينهما، أسيرا نفسيهما حتى أنهما لم يريانى. ازداد وجعى وعذابى فى وضوحه كالإدراك الخالص، وقد قطع الطريق عليه، وظلَّ وقد دنست جوهره النقى لهفة صماء، مشاعر ثقيلة الوطأة وكئيبة احتلتنى. ويا لذلك التفكير المؤلم المثير للإحساس بالهم، ثمرة نظام صارم طويل، بقى منه الفشل وتحول إلى بؤس شديد.

الأشرار يدوسون على دموعى بآثار خطواتهم.

* الأحد ٢٠ يوليو

كان هناك مقياس حقيقى وسليم يقسم الألم إلى درجات من ناحية شدته ونوعه وحدوده. والآن عندما يوجد من يؤكدون أن الألم لا حدَّ له، وأنه لا ينعدم

أبدًا، فإننى أرى أنه بعد الدرجات العشرة من سلمى، تبقى فقط ذكرى الألم. واستمرار الألم بالفعل لا يأتى من الأفعال التى تسببه، بل من تذكرها. وأعتقد أن أهم ما فى فترة التمرين أن الأوفق اختيار الوقت المناسب لعمله، ومن سرعة البديهة أن يمضى فى تصاعده بالتدريج، وقد أثبتت التجربة أن الحركة المفاجئة تكون نتيجتها بائسة جدًا، إذ أن العقل واكتمال الألم يتطلبان الاسترخاء والتحكم فى أنواعها وتلاشيها، وتجربة متعددة الأطوار من الدرجات، كالمشى بدون صعوبة من ٣ إلى ٨ درجات، ومن ٤ إلى ١ ومن ٢ ـ ٧ وبعد ذلك قطع هذه المسافات بنظام صارم، طلوع ونزول...

لقد عذبنى كل هذا الشرح الذى له فائدته، ولكن هنا، تحت قدمى، ماء.

* الإثنين ٢١ يوليو

فى الساعة الأولى وصل صاحب العمارة، ولم أكن قد أكملت تنشيف أرضية الشقة، صرخ فىَّ وهو يلوح بيديه، ويتلفظ بكلمات شنيعة. وبحالة مثل حالتى، كنت قد اعتدت على معاناتى من الظلم، والاحتياجات التى يساء التعامل معى فيها. سلوكه لم يكن إلا انعكاسًا لأمور أخرى كثيرة. وكان عليه أن يتصرف بشكل لائق لكى يحرك مشاعرى، وليس تصرفًا ساذجًا لمسخ هائل. لم أعِرْه أدنى قدر من الأهمية.

وعندما كان هو يصرخ؛ كنت أنا منكبة على قص أظافرى بعناية، وبدون عجلة. ولما انتهيت من قصها انفجر الرجل باكيًا. لكن ولا هذا أيضًا حرك مشاعرى. لقد بكى مثلما يبكون كلهم، عندما يكون عليهم أن يبكوا. لو أنه بكى مثلما أبكى أنا، عندما يدفعنى التفكير إلى نزول وطلوع الدرجات السبعة، حسب النظام الذى أسير عليه، ما الذى يقولونه...!

* السبت ٢٦ يوليو

بكل تواضع، سأعترف بأننى مبرأة من الألم. هذه الليلة، وبينما أعانى عملت مشنقة على السلم. خرجت وهى تنظر إلى قطط جيرانى. كانوا مذهولين من أن الإنسان له هذه القدرة على تحمل الألم. وبالكاد لاحظت حضوره، وعيناه كانتا أشبه بجمرتين تتوهجان وتنطفئان. كان علىَّ أن أصل حتى الدرجة العاشرة. أخطأت فى عد الدرجات، ولأن شدة نوبة الألم مثل شدة اللذة، فقد دارت رأسى وارتبكت حواسى.

* الأربعاء ٣٠ يوليو

أنا غارقة فى الاكتئاب بشدة، شديدة الوهن ويبدو علىَّ الشحوب، لدرجة أنه فى بعض الأحيان، عندما يصعد شخص ما ولا يكون يعرفنى يجن عندما تقع عيناه علىَّ. أنا راضية بالشكل الذى تبدو به حالتى التى طالت، حريصة على عزلتى، وتعاملى بحكمة للوصول بها إلى اكتمالها.

* الأحد ٣ أغسطس

لا أعرف كيف، ولا أعرف الكلمات التى أصف بها ما جرى لى اليوم، ومازلت أرتعش كلما أتذكره. حدث ذلك منذ عدة ساعات، ولم أتخلص بعدها من حالة الذهول. تأنيب الضمير الذى ما أكثر ما تعودت عليه، غطى الآن على اعتلال صحتى، وحولنى إلى واحدة من ضحاياه. كما لو أنهم يعتقدون تمامًا عندما استوليت على السلم بالكامل، وعندما حدث ذلك كله طواعية وقعت فى حالة من الرعب لا تغتفر، فخارج العمارة، لم يسمع به أحد من قبل، إنه فظيع وجالب للنحس. فلو أننى، ولو لمرة واحدة، توقفت عن التمرس، وخرجت عن هذا النظام الصارم، لأن هذه المهارة تستلزم ذلك، كنت سأقول إنها كانت نتيجة منطقية، لكننى كنت أحافظ عليها بإخلاص...

* الخميس ٧ أغسطس

لا أدرى إذا ما كنت سأخرج سليمة من هذه البرودة الشؤم. لقد اشتغلت اليوم ثلاث ساعات متواصلة (هذا معناه إنهاك زيادة عن اللزوم) فى الدرجة السادسة من سلمى، المؤشر الأكبر على أمور مثل هذه. تألمت كما لم يحدث من قبل أبدًا. وكان الألم فظيعًا لدرجة أن الجيران حملونى فى يأس من تحت السلم. وهنا تحت الضمادات كان الدم متجمدًا، والجراح مفتوحة، وكان علىَّ أن أزيد العد لأبدل الخمس درجات. هذا عن الجروح الحقيقية.

لم يحدث لى هذا من قبل. وربما كان هذا السقوط من فوق السلم، إلهامًا سماويًا. فتح العينين على عقاب من نوع جديد.

* الثلاثاء ١٢ أغسطس

لست قادرة على النسيان. ربما يكون هذا عقابًا لى على تكبرى. بعد ذلك بدأت أحس وأكد هذا الإحساس لى أننى حلمت بأننى أدير العمارة بمعلمة. وهذا ما كتبته يوم السبت ٢٦ يوليو. اعتراف كارثى. فالكلمات تنمو وترتد ضد الشخص نفسه. نعم هذا فقط ما فكرت فيه! كان علىَّ أن أتمرن حتى الإنهاك بين الدرجات السادسة والتاسعة لساعتين فى كل مرة. وبعد ذلك كان علىَّ أن أهرب بسرعة إلى شقتى، خوفًا من أن تحدث لى انتكاسة؛ أو أقع ثانية.

* الجمعة ١٥ أغسطس

لقد وقعت مرة أخرى! عندما غمرت آخر أشعة شمس العصر بلاطات بسطة السلم، أحسست بيدها التى لبثت بين يدى وهى تهرب منهما. كانت يداها باردتين، ولينة، قالت لى شيئًا لم أسمعها، لكن كلماتها نزلت كالبلسم فوق أوجاعى. لم تكن تريد أن تعرف شيئًا، وأنا كنت ممتنعة عن الكلام. وعندما نطقت باسمى، لم أسمعها، إذ كانت قواى كلها، وكل ما كنت أنتويه، وكل حيلى؛ قد تفتتت أمام نظرتها، نظرة

الغزال. الحيلة قربان مرفوض، والإلهام الربانى هو الأساس. شعور الإنسان بأنه مدعو لفعل ما، هو الأساس. وسم الكى بالنار، يظل وسمًا يستولى على الجسد الذى تستهدفه، وقصدت أن تستعبده، تقضى عليه...

ولم تردّ أن تستدير ملتفتة إلىَّ ولو لمرة واحدة لكى أنظر إليها!

* الإثنين ١٨ أغسطس

انتزعت الضمادات. وترك الدم أثره فى السجادة، وكانت هناك دماء أيضًا نتيجة أننى نزفت بداخلى. تذكرت ليونة يديها، تلكما اليدان اللتان ربما فى هذا الوقت نفسه تداعبان وجهًا آخر.

للمرة الأولى منذ فترة طويلة لم تخرج لتجلسنى على بسطة السلم. كنت خائفة من مجيئها فى أية لحظة. خائفة من أنها بحضورها فقط، ستبدد ألمى.

* السبت ٢٣ أغسطس

فى الصباح جاء السيد روخاس، وظن أن شيئًا ما لابد قد حدث لى، إذ لم يرنى فى ركنى المعتاد على بسطة السلم. جاء لى ببعض الفاكهة، والسجائر، ومع ذلك ساورنى الشك فى أن اهتمامه بى لم يكن بنية خالصة. إذ هناك سر غريب فى موقفه. ربما يحاول

أن يشترى صمتى، فلقد رأيت النسوة اللاتى يدخلهن شقته. ربما يريد...

* الثلاثاء ٢٦ أغسطس

بجوار الباب المقفل، ولكى تكون قعدتى قريبة أكثر من درجات السلم، كنت أؤدى تمرينى على الـ ٤ والـ ٧ درجات. سمعت خطواتها التى توقفت لمرات عديدة، ومن ناحية أخرى؛ أحسست بسخونة جسدها وهى تجتاز الباب، وعطرها يقتحم شقتى الكئيبة. من الخارج أفسدت علىَّ عزلتى، واقتحمتها عنوةً، وانهارت أمامها كل استحكاماتى. وأدركت خلال نوبات النشيج، أننى أحبها.

* الجمعة ٢٩ أغسطس

أحبها، نعم، وهى العدوة اللدودة. هى التى يمكنها أن تنهى الأمور معه، ليكون لقلبى وجود. أحبها منذ أن كانت يدها بين يدى. ولو كنت خارج العلاقات التقليدية، مثل السيد روخاس، أو مالك العمارة، كنت سأضاجعها، وأغرق نفسى فى طراوة جسدها، لكن تحتم علىَّ أن أبقى فى العذاب الذى أتمرن عليه يومًا بعد يوم حتى أناله بأكمله. العذاب من أننى أحبها وأراها عن قرب وهى تجتاز الباب المقفل. أحبها، نعم. لأنها انسلت بنعومة من خلال السلم كما لو كانت شبحًا، أو كما لو كانت حلمًا. ولأن أحدًا لم يتحقق ما

إذا كانت تحبنى أم لا. وأنها وحدها، من حين لآخر تتراءى لى فى وحدتى.

* الأحد ٣١ أغسطس

لو كان الألم يأتى فقط من فكرة التخلص منها، فسيكون ذلك شيئًا مزعجًا، لكنه شىء ساحر! فهذه الدرجة من الألم هى فرع من الـ ٨ درجات. وأنا أتمرن عليه يوميًا حتى أتمكن من امتلاكه. لكنه ليس ذلك فقط، فأنا خائفة منها. وسيكون أكثر قوة أن تكون محبتى لابتسامتها، وصوتها. سأكون أكثر سعادة وأنا أراها تذهب وتجىء إلى شقتى بينما الشمس تتوهج على شعرها. وسيكون فى ذلك دمارى، ويأسى التام! معها ستنتهى كل أشكال خداعى لنفسى وطمعى. لو أنها اختفت... تذكرها العذب سيقطع نياط قلبى ويمزق أحشائى طوال حياتى. أوه... يا له من عذاب لا يمكن وصفه، حيلى كلها، مهاراتى كلها! نعم. لو أقرأ غدًا فى الصحف: "شابة جميلة ماتت عند وقوعها بالصدفة من فوق سلم عالٍ..".

# الضيف

لن أنسى أبدًا ذلك اليوم الذى جاء فيه ليقيم معنا. وزوجى هو الذى أتى لنا به وهو عائد من إحدى سفرياته. وفى ذلك الوقت، كان قد مر على زواجنا ثلاث سنوات، وكان لنا طفلان، لكننى لم أكن سعيدة. ولقد حمل إلىَّ زوجى شيئًا كما لو أنه قطعة أثاث، لكى تتعود الواحدة منا أن تراه كل يوم أمامها فى المكان نفسه، الذى قرر هو المعيشة فيه. لكنه لا يثير أى إحساس بوجوده.

لقد كنا نقيم فى بلدة معزولة بعيدة عن المدينة. بلدة؛ تقريبًا شبه ميتة، وعلى وشك التلاشى، والاختفاء من الوجود.

لم أستطع أن أكتم صرختى أول مرة رأيته فيها رعبًا منه. كان كئيبًا ولئيمًا، بعينين كبيرتين صفراوين، وتقريبًا مدورتين دون أن تطرفا، لأنهما تبدوان كما لو

كانتا تخترقان الأشياء والأشخاص. وتحولت حياتى التعسة إلى جحيم. وفى ليلة وصوله نفسها توسلت إلى زوجى ألا يعذبنى بصاحبه، ولم أستطع مقاومة ما أثاره فى داخلى من عدم الثقة والرعب. "إنه غير مؤذ تمامًا" هذا ما قاله زوجى وهو ينظر إلىَّ بنظرة جانبية وبعدم اكتراث. "سوف تتعودين على مصاحبته لنا."، "ولو لم يحدث ذلك؟"... لم تكن هناك وسيلة لإقناعه بما أتخيله، وبقى مقيمًا فى بيتنا.

ولم تكن المعاناة من وجوده تقتصر علىَّ أنا وحدى، بل كل من فى البيت، أولادنا، والمرأة التى تساعدنى فى شغل البيت وطفلها الصغير، يشعر بالرهبة منه. وزوجى فقط هو الفرحان بوجوده معه هنا. ومنذ اليوم الأول خصص له زوجى الحجرة التى فى ركن حديقة البيت، كانت حجرة واسعة، لكنها رطبة ومظلمة، ولعيوبها هذه لم نشغلها أبدًا. وبالرغم من عيوبها، فقد أبدى هو رضاءه بالحجرة، كما لو أنها مما لا مزيد عليه من العتمة المخيمة عليها توافق حاجته، إذ كان ينام طوال النهار وحتى يحل الليل. ولا يتجاوز أبدًا ذلك الحيز الذى يرقد فيه.

والقدر الضئيل من الطمأنينة، والذى كنت قد حصلت عليه فى ذلك البيت العتيق من بيوت الأعيان، حيث كانت الأمور تسير خلال النهار بشكل طبيعى، فأنا أستيقظ دائمًا فى وقت مبكر جدًا، ألبِّسُ الأطفال ملابسهم عندما يصحون، وأقدم لهم إفطارهم وما يفتح شهيتهم، وأثناء ذلك تكون جوالدالوبى - التى

تساعدنى فى شغل البيت . قد رتبت الغرف، وخرجت لشراء ما كلفناها به من احتياجات بيتنا .

وكان البيت كبيرًا جدًا، بالحديقة التى تتوسطه، والحجرات الموزعة حولها، وبين الحجرات والحديقة ممرات معَّرشةً لكى تقى الحجرات من شدة انهمار المطر، ومن العواصف التى كثيرًا ما كانت تعاود هبوبها . وكان علىَّ أن أهتم بترتيب هذا البيت الكبير الذى بمثل هذا الاتساع، وأعتنى بالحديقة، ولذلك كان يومى مشغولاً من أوله لآخره. وكان ذلك عبئًا ثقيلاً علىَّ. لكننى كنت مغرمة بحديقتى. فالممرات مغطاة بعرائش اللبلاب الذى كان مزهرًا تقريبًا طوال السنة. أذكر كم كنت أحب فى أوقات العصر أن أجلس فى ممر من الممرات لأخيط ملابس الأطفال وأنا أشم عطر نباتات سلطان الجبل، ووسط زهور الجهنمية فى الحديقة التى زرعت فيها أيضًا زهور الكريزتسيم، وبنفسج زهرة الثالوث، وبنفسجات جبال الألب، وأزهار البيجونيا، وزهرات عباد الشمس، وفى الوقت الذى كنت أروى فيه النباتات، كان الأطفال يتلهون بالبحث عن الديدان تحت الأوراق الساقطة، وأحيانًا كانت تمر الساعات وهم فى منتهى اللطف والهدوء، وهم يحاولون دون جدوى الإمساك بقطرات الماء المندفعة من خرطوم الرش القديم.

لم يكن باستطاعتى تفادى إلقاء نظرة بين الحين والآخر نحو الحجرة التى فى ركن الحديقة، وبالرغم

من أنه كان يقضى النهار كله نائمًا، لم أستطع أن أحس بالأمان من ناحيته. إذ حدث أكثر من مرة، أنه، وعندما كنت أعد الطعام، انتبهت فجأة على ظله الذى كان ساقطًا فوق الموقد الذى أطبخ على ناره وأغذيها بالحطب. أحسست به خلفى فرميت ما أحمله بين يدى علَّى الأرض، وخرجت من المطبخ وأنا أجرى وأصرخ كالمجنونة. بينما عاد هو إلى حجرته وكأن شيئًا لم يحدث.

أعتقد أنه لم يتعرف على جوالدالوبى أبدًا، فهو لم يقترب منها مطلقًا ولم يطاردها، والأطفال هو يكرههم. أما أنا، فإنه يتجسس علىَّ دائمًا عندما يخرج من حجرته، وأكبر كابوس مزعج لى ويمكن للواحدة أن تعيشه عندما يتخذ له، بشكل دائم، مكانًا أمام باب حجرتى، لذلك فأنا لا أخرج كثيرًا، ولكن فى إحدى المرات، وعندما فكرت بأنه مازال نائمًا، فذهبت إلى المطبخ لأعد وجبة خفيفة للأطفال، وفجأة ووجهت به فى ركن مظلم من الممر تحت تعريشة اللبلاب. ولحظتها صرخت يائسة: "إنه مازال هنا يا جوالدالوبى!".

جوالدالوبى، وأنا؛ لم ننطق اسمه أبدًا. وبدا لنا أننا لو فعلنا ذلك، نكسبه وجودًا حقيقيًا، هذا الكائن الشبحى الغامض. ودائمًا نقول:

"إنه موجود هناك. الآن خرج. إنه نائم. هو. هو. هو....

كان يتناول وجبتين فقط، واحدة أول ما يستيقظ عندما يحل ظلام الليل، والأخرى، ربما، فى الفجر قبل أن ينام. وكانت جوالدالوبى هى المكلفة بحمل الصينية بالطعام إليه، ويمكننى أن أؤكد أنها كانت ترميها له من باب الحجرة إذ أن المرأة المسكينة كانت تعانى مثلى من الرعب نفسه. وأكله كله كان يقتصر على اللحم، ولم يذق شيئًا سواه.

وعندما كان ينام الأطفال، كانت جوالدالوبى تأتى لى بعشائى حتى حجرتى، فأنا لا أستطيع أن أتركهم وحدهم، إذ أفكر بأنه ربما يكون مستيقظًا، أو بسبيله إلى الاستيقاظ. ففى مرة انتهت جوالدالوبى من شغلها فى البيت، وذهبت مع صغيرها للنوم، وأنا بقيت لوحدى أتأمل أولادى وهم يحلمون. ولما كان باب حجرتى يترك مفتوحًا بشكل دائم لم تواتنى الشجاعة لأنام إذ أننى أخاف من أنه فى أية لحظة يمكن أن يدخل ويهجم علينا. ولم يكن ممكنًا غلق الباب لأن زوجى يصل دائمًا فى وقت متأخر، وعندما لا يجده مفتوحًا؛ فقد يسىء الظن... وهو يأتى متأخرًا دائمًا، فليأت متأخرًا، أحسن، فهو عنده شغل كثير، وهذا ما قاله لى مرة، وأنا فكرت بعدها أنه ربما هى أمور أخرى التى تشغله أيضًا.

وذات ليلة، وكنت قد تنبهت من نومى حوالى الساعة الثانية صباحًا، وبقيت أتنصت عليه فى الخارج... ولما أفقت تمامًا رأيته واقفًا بجوار سريرى

ينظر إلىَّ، ويحدق فىَّ بنظراته الثابتة التى تخترقنى؛ فقفزت من الفراش وقذفته بلمبة الجاز التى أتركها مضاءة طوال الليل. فلم تكن هناك كهرباء فى تلك البلدة، كما أننى لا أتحمل الظلام، مدركة أنه فى أية لحظة سوف يتفادى الضربة ويخرج من الغرفة. تكسرت اللمبة على بلاط الأرضية، والجاز طالته النار بسرعة، ولولا أن جوالدالوبى أتت على صرخاتى لاحترق البيت كله.

زوجى لم يكن عنده وقت لكى يسمعنى، ولم يكن يهمه ما حدث فى البيت وما تكلمنا فيه معًا كان فقط ما لابد منه فيما بيننا، لأنه، ومنذ زمن طويل، العواطف والكلمات كانت قد استهلكت.

والآن، عندما أتذكر ما حدث، يعاودنى الإحساس بأننى مريضة... كانت جوالدالوبى قد خرجت للتسوق، وتركت صغيرها مارتين نائمًا فى صندوق حيث تضعه وتنيمه أثناء النهار. وكنت أمشط لأولادى شعرهم عندما سمعت أنات الصغير مختلطة بصرخات غريبة، وعندما وصلت إلى الحجرة وجدته يضرب الطفل بقسوة، وما زلت لا أعرف كيف انتزعت الطفل منه وكيف خبطته بقضيب حديدى وهو الذى وجدته تحت يدى، وهاجمته بكل الغيظ منه والذى أكبته من زمن طويل. ولا أعرف إن كنت أصبته بأذى شديد أم لا، لأننى سقطت بعدها فاقدة الوعى. وعندما عادت جوالدالوبى من المأمورية التى خرجت لقضائها

وجدتنى مغشيًا علىَّ، ووجدت صغيرها مصابًا بعديد من الكدمات والخدوش التى تنزف دمًا. الألم والشجاعة فى مواجهته كانا فظيعين. ولحسن الحظ فالطفل لم يمت وسرعان ما شفى.

وخشيت أن ترحل جوالدالوبى وتتركنى وحدى. وإذا كانت لم ترحل، فذلك لأنها كانت امرأة نبيلة، وشجاعة تكن لى ولأطفالى مشاعر غامرة بتعاطف حميم، إلا أنها فى ذلك اليوم تولدت بداخلها كراهية هائلة جعلتها تتلهف على الانتقام منه.

ولما حكيت لزوجى ما حدث، طلبت منه أن يأخذه من هنا وأنا أتحجج بأنه يمكن أن يقتل أطفالنا، مثلما حاول ذلك مع الصغير مارتين. وكان رده: "أنتِ كل يوم تزدادين هستيريا، وفى الحقيقة أنتِ مرهقة، وتبعثين على الاكتئاب. تأملى نفسك وأنتِ هكذا بهذا الشكل! لقد شرحت لكِ ألف مرة أنه كائن غير مؤذٍ.".

فكرت حينئذ فى الهرب من هذا البيت، ومن زوجى، ومنه. لكننى لا أملك مالاً، ووسائل المواصلات أيامها كانت صعبة، وأنا لا أصدقاء لى، ولا أهل، فلمن ألجأ؟. وأحسست بأننى وحيدة تمامًا، مثل يتيمة.

طفلاى كانا مرعوبين حتى أنهما لم يحبا أن يلعبا فى الحديقة ولا أن يتحركا بعيدًا عنى. وعندما تخرج جوالدالوبى إلى السوق؛ أقفل عليهم وعلىَّ فى غرفتى. وفى يوم قالت لى جوالدالوبى:

- هذا الوضع لا يمكن أن يستمر.

وأجبتها:

- يجب علينا أن نفعل شيئًا، وبسرعة.

- ولكن ماذا يمكن لامرأتين أن تفعلا بمفردهما؟

- بمفردهما، نعم، هذه حقيقة، لكن بكراهية لا حد لها..

لمعت عيناها لمعانًا غريبًا، فأحسست بالخوف والفرح.

وجاءت الفرصة فى الوقت الذى أوشكنا فيه أن نفقد الأمل، فقد سافر زوجى راجعًا إلى المدينة، ليتابع بعض أعماله، وسوف يتأخر فى العودة، حسبما قال لى، حوالى عشرين يومًا.

لا أعرف إذا كان هو قد علم بأن زوجى قد سافر، لكنه فى ذلك اليوم، استيقظ قبل الوقت الذى اعتاده، فأخذ مكانه وجلس فى مواجهة حجرتى. وجوالدالوبى وطفلها انتقلا ليناما معنا أنا والطفلين فى حجرتى، وللمرة الأولى كان بإمكانى أن أغلق علينا الباب.

وقضينا، أنا وجوالدالوبى، الليلة كلها تقريبًا ونحن نضع خططًا، بينما نام الأطفال فى سكينة، ومن وقت لآخر نسمعه يصل حتى باب الحجرة، ويخبط عليه بغيظ.

وفى اليوم التالى، أطعمنا الأطفال إفطارهم، وكى يظلوا هادئين، وحتى لا يكونوا معوقين لنا فيما نخطط له، حبسناهم فى حجرتى، وأغلقنا عليهم الباب.

كان وراءنا - جوالدالوبى وأنا - أمور كثيرة لنقوم بها، ولتنفيذها بأسرع ما يمكن. لدرجة أنه لم يكن بوسعنا أن نضيع الوقت حتى فى الأكل.

نشرت جوالدالوبى بعض ألواح الخشب الكبيرة والصلبة التى تتحمل، وفى الوقت نفسه كنت قد بحثت عن قادوم ومسامير ووجدتهم. وعندما استكملنا كل ما نحتاجه وصلنا دون أن نحدث جلبة إلى حجرته فى ركن الحديقة. ألواح الباب كانت من أخشاب متباعدة، فمددنا أيدينا، وأنزلنا الترابيس وبعد ذلك أغلقنا الباب من الخارج بالمفتاح وبدأنا فى دق ألواح الخشب بالمسامير حتى سددنا باب الحجرة بشكل محكم. وبينما كنا فى حمىَّ الشغل كانت قطرات العرق الثقيلة تجرى فوق جبيننا، لم تحدث ساعتها ضجة، إذ بدا كما لو أنه غارق فى نوم عميق ولما انتهى كل شىء، جوالدالوبى وأنا، تعانقنا وانفجرنا فى البكاء.

الأيام التى تلت ذلك؛ كانت مرعبة. فقد بقى على قيد الحياة أيامًا كثيرة دون هواء، ودون نور، ودون طعام، ودون ماء... فى الأول ظل يدق على الباب، ويخبطه بجسده، وكان يطلق صراخه يائسًا وهو يخربش فيه... لا جوالدالوبى، ولا أنا، كان باستطاعتنا أن نأكل أو ننام. كانت الصرخات فظيعة،... وفى بعض الأوقات فكرنا فى أن زوجى يمكن أن يعود قبل أن يكون هو قد مات... آه لو وجده هكذا!... كانت مقاومته كبيرة، واعتقدت أنه يمكن أن يظل حيًا حوالى أسبوعين.

وفى يوم لم أسمع بالفعل أى صرخات، ولا عويل، ولا تأوه... وبالرغم من ذلك انتظرنا يومين كاملين زيادة عن الوقت المفترض، قبل أن نفتح عليه الحجرة.

عندما عاد زوجى، استقبلناه بخبر موته الذى كان مفاجئًا ومحيرًا لنا!

# تذكرة سفر إلى أى مكان

قال لأصدقائه الذين ألحوا عليه أن يبقى معهم، بينما كان يتجه للخروج من النادى، أنه لا يمكنه أن يبقى أكثر من ذلك، فساقاه متورمتان من قعدته لثلاث ساعات، والسيمفونية كانت عالية الصوت، والدخان يتكاثف. ما كانوا يرغبون فيه هو الانتقام منه، ولذلك كانوا يلحون عليه فى أن يبقى. لم يكونوا قادرين على تحمله وهو يكسب فى اللعب لمرة واحدة. ولم يصدقوه عندما قال لهم إن لديه عملاً فى البيت. كان ماركوس جادًا. وأمه كان عندها حق "الأصدقاء يستعبدوننا يا بنى." فللآن لم ينجح فى أن يكون حرًا، ولا أن يعود إلى بيته عندما يريد، وهو فى حاجة لأن يكون وحده. وفكر، أن الأيام تمضى ولم يكن قد تكلم مع رئيسه بعد، وعندما كان يستدير مع انحناءة الناصية، وقعت عيناه على شباك كارميلا. كان الشباك مفتوحًا، إلا أنها ستكون الآن، مازالت فى محل تطريز المناديل.

لقد جاءته دعوات أربع للعشاء وحده، واعتذر عنها بعد ذلك. أمها كانت تقلقه، إذ كان كل شىء فيها مزيفًا، تلك الابتسامة التى تظهر أسنانها بالكاد. نظرتها الناعمة، صوتها. أحس بها تراقبه دومًا وسرعان ما تمسك به. فهى تلاحظه بدقة من فوق لتحت، وكانت تظل صامتة لفترات طويلة. وكان عليها أن تختار له أطباق النمنمى الصغيرة الحجم، والتى أعدتها خصيصًا له، وتضبطه عندما يختلس النظر إلى كارميلا ونظراته تطوف بجسدها، وبعدها ترتد نظراته كى لا تلاحظها الأم، كانت هناك زهور فوق البيانو، وكونياك، وكريم كرامل لما بعد العشاء. لا يمكنه أن يشكو فقد كانوا يقومون بالواجب على أكمل وجه، ولابد أن دعوات العشاء هذه تكلف كثيرًا. من الذى تفكر فيه كارميلا الآن؟ ولمن تعد وجبات العشاء اللذيذة هذه؟ ومن هو الذى سيتطلع منتشيًا إلى أفخاذها وسيقانها بينما تعبر بينهم وهى ساهمة؟ وعزفت كارميلا على البيانو بعد العشاء، بينما ألقت أمها بنفسها فى مقعد مريح، وأخذت تأكل البنبون واحدة وراء الأخرى بينما تتصاعد التنهدات من صدرها الوافر. واستمع إلى عزفها لتلك القطع باستحياء شديد ورهافة بالغة. غزته... وكان عليه أن يتكلم مع رئيسه قبل ذلك بوقت كاف ويطلب منه زيادة راتبه ويصر على ذلك. لقد ارتدى بدلة من الصوف الفانلة الأزرق، مع رباط عنق أزرق مقلم بخطوط حمراء. كان يرتدى أفضل ثيابه عندما يتقدم بطلب

ما. لكن لو أن السيد الرئيس قال له: "أنا أستغرب يا أستاذ أن تطلب زيادة مرتبك، ولا يبدو لى أنك فى حاجة إلى زيادة..." فهو لن يتحمل نواياه السيئة هذه المغلفة بلهجة مازحة. ولذلك فعليه أن يدرب نفسه على ما سيرد به عليه كلمة بكلمة... فطوال الأيام الماضية وإيرينى تسأله إن كان قد تكلم مع رئيسه، هل سيتغلب على عدم جرأته، وعلى أنه حاول ذلك طوال الأيام الماضية، فلم يعرف ماذا يقول له، ولا كيف يبدأ الكلام معه. ولقد قضى الليل كله وهو يفكر ليجد الطريقة التى يتكلم بها... إيرينى طمأنته بأنه ليس مهمًا لو انتظر قليلاً، إلا أنهم فى بيتها كان لهم رأى آخر: "ما تفعله أنك تضيع الوقت، وفى النهاية لن أتزوجك". وبدأ يرهقه هذا الاستعجال. وصار فى كثير من الأحيان لا يرغب فى رؤية إيرينى، فذلك السؤال الذى تبدأ به يوميًا معه؛ يجعلها إنسانة لا يمكن تحملها.

لو أن كارميلا ليست مرتبطة!

وعندما وصل إلى بيته نبهته الخادمة إلى أن سيدًا سأل عنه، وظل يسأل عنه لأكثر من مرة.

- ما اسمه؟

- لم يرد أن يقول لى ما اسمه عندما سألته.

- أليس واحدًا من أصدقائنا؟

- لا. فأنا أعرفهم جيدًا. أما هذا فسيد جادٌ جدًا. وهو طويل ونحيف، ويلبس بدلةً غامقة...

صعد السلم وهو يفكر فيمن يمكن أن يكون هذا الشخص الذى جاء ليسأل عنه. دخل غرفته، وجلس فى سريره منشغلاً بالتفكير فى الأمر. أشعل سيجارة. والأصدقاء فقط هم الذين يسألون عنه فى بيته. فمن أجل أى غرض، وهم يمكنهم أن يروه فى العمل. وجلس يتخيل رجلاً طويلاً ونحيفًا، كما وصفته الخادمة، يلبس بدلة غامقة، وجاد، بل ومتجهم... وشرع يوجه الكلام إليه: "أرجوك يا سيد X أن تكون لديك المقدرة، والصبر، والرضا بالمكتوب، والشجاعة. لأن والدتك قد ساءت حالتها، والآن هى تحتضر، وما من عمل لإنقاذها..." وأطفأ السيجارة. لماذا يفكر فى أمور شديدة الوطأة بهذا الشكل؟. منذ أيام قليلة أرسلوا له يقولون إن أمه قد تحسنت حالتها بشكل كافٍ، وأنها تأكل وتنام بشكل كاف. والرجل الذى يلبس بدلة غامقة؛ سوف يحييه بجدية بعد أن يقول له بصوت يشعر من يسمعه بالخطورة: "الرسالة التى كلفت بحملها إليك هى أن، وهذا ما هو أشد إيلامًا فيها، أقول إن السيدة والدتك قد ماتت بشكل مفاجئ. وتفضل باستلام الشهادة مع مواساتنا الصادقة لكم..." وكان علينا أن نسافرْ حالاً، فى هذه الليلة نفسها؛ فى آخر قطار، برفقة المبعوث المتجهم الوجه. سوف يصلان عند الفجر، وهو ميت من البرد وقلة النوم والألم. سيجدها وقد أودعت فى ثلاجة المشرحة التى تودع فيها الجثث فوق لوح رخام بارد، أو ربما سيجدها ممددة فى التابوت بين أربع شموع. ولا بد

انها، قبل أن تموت، نادته بالاسم، بلا شك. وربما كان هو يلعب فى هذه الساعة مع أصدقائه، أو يتأمل سيقان كارميلا. كم هو مؤلم أن يتطلع الإنسان إلى ميتة!. لن يستطيع تحمل ذلك، ولن يفتح التابوت. وسيبقى دون أن يلقى عليها النظرة الأخيرة. وبقى ساعات طويلة وحيدًا مع ميتته. شخص ما، سيقدم له فنجانًا من البن الكريه العكر، وفى اليوم التالى سيدفنونها فى قرية ما قريبة من المصحة، ولكن أمه كانت سيدة قوية بما يكفى، وصحتها كانت سليمة، وبالرغم من ذلك فإن مرضها لم يطل، إذ كان يمكنها أن تعيش به خمسة عشر، أو عشرين سنة... وسيأتى إلى الرجل المتجهم ويخلع قبعته: "هل حضرتك السيد X «إكس؟». سأسأله بشكل متحفظ محترمًا الرسميات. ويقول هو: "جئت لأبلغك أنه بالأمس هرب من مصحتنا عدد من المرضى، من بينهم السيدة والدة حضرتك. ونحن لم نتمكن حتى الآن من تحديد مكانهم...". ما الذى يمكن أن يفعله هو حتى يعثر عليها! سوف يخطر البوليس وسيذيع خبرًا عبر الراديو، وسينشره فى الجرائد. أمه المسكينة ضاعت! وهى تائهة وهائمة على وجهها بالليل وبالنهار، تتخبط من مكان إلى مكان، بدون طعام، وليس على جسمها بالطو يحميها من البرد، ومن الممكن فى أحوال كهذه أن تصاب بالتهاب رئوى، وتموت، وهو لن يعرف حتى؛ أين يبحث عن جثتها. وحدها فى الليل، ميتة من البرد والجوع... وهى تنادى عليه... وتنادى... وتتراءى له

وهى تعبر طريقًا ما، تعبره و... أى موت أشنع من هذا!. وأشعل سيجارة وهو يتنهد. لابد من نقلها، بآلامها الهائلة، إلى مصحة حيث تكون محاطة بالرعاية والسهر عليها. ليس فى إمكانه أن يرعاها كما يجب، فهو عنده شغل، والخادمات... رجل طويل نحيف بالغ الصرامة يلبس بدلة غامقة، هو وحده القادر على نقل خبر سيئ... كان من الأفضل له أن يكون المبعوث الذى يرسلونه إليه، والدا إيرينى ليجعلاه يعرف أنهما تعبا بالفعل من انتظاره، حتى يطلب زيادة مرتبه ويتزوج. ويصبح بذلك فردًا من أفراد العائلة، أو شخصًا مقربًا جدًا لهم... ربما لن يسمحا له برؤية إيرينى بعد ذلك. وهذا من الممكن أن يحدث. فهو يعرفهم بما يكفى، وبشكل جيد وهم قادرون على كل شىء، وعندئذ سيصير هو مثارًا للسخرية، وسيحكون عنه للدنيا كلها: "لقد أرسلنا له المسكين. أرسلنا للسيد X «إكس». سأسلا يعود وألا تطأ قدماه هذا البيت.". التعساء! الأحسن له أن تخرج إيرينى من هناك. ألا يعودوا لرؤيتها للأبد. أو ربما عندما تكون، وقد صارت امرأة سمينة، غارقة فى زحمة الأولاد والملل. ولكن هى؛ لن تكون قادرة على فعل شىء، وسوف تتركهم يتحكمون فيها كما لو أنها دمية. الإفراط فى الحب، والإفراط فى التدليل، كله كذب. سوف يراهم وهم يضحكون عليه، غارقين فى النفاق وهم يقولون لأصدقائهم: رغم كل شىء، فقد أثار شفقتنا عليه، الشاب المسكين ...X «إكس»! لن يقبل

منهم تلك الترضية، إظهار الحب. ومستثارًا، ومطعونًا إلى أبعد حد فى أعماقه، وهو يتمشى من ناحية لأخرى داخل غرفته، بخطوات متسارعة، أطفأ السيجارة وأشعل سيجارة أخرى... وفجأة تذكر أنه عند خروجه من المكتب تطلع إليه المدير بطريقة غريبة جدًا: "فى الصباح تأكدنا من كسرك للخزينة الحديدية." وأخذوا يقلبون فيه النظر من فوق لتحت. وفى أفضل الأحوال كان هناك شك فى أن حكاياته لم تكن صحيحة، أو أنه صار لصًا... «عندى أمر بالقبض على حضرتك يا سيد X «إكس» بتهمة الاختلاس...».

كان ذلك الرجل! بوليسًا سريًا، مندوبًا من الشرطة السرية لإلقاء القبض عليه. ولكن فيما يتعلق به فهو لم يرتكب ولا غلطة واحدة، لم يأخذ ولا حتى سنتًا واحدًا. لا يمكن أن يكون هو. والرجل الذى يلبس البدلة الغامقة نظر إليه نظرة متفحصة... «سيد X «إكس» لقد أعطتك الشركة مهلة اثنتى عشرة ساعة لكى تعيد النقود التى فقدت إلى الخزينة وإلا..." إلى أين يذهب هو لإحضار هذه النقود؟. إنهم سيحبسونه بسبب السرقة، وستنشر قضيته فى الجرائد. ماذا سيحدث لأمه ساعتها؟. سيطردونها من المصحة، أو ربما ينقلونها إلى وحدة صحية، من تلك التى لا يتقاضون عنها شيئًا ويعالجون المرضى فيها كما لو أنهم حيوانات... وتخيل الوجه الذى ستتخذه إيرينى وأبواها عندما سيقرءون الخبر فى الجريدة وقد فقدوا الخطيب... ربما الخطيب الوحيد... "قلنا لكِ

إنه نوع سيئ من الناس..." ستنقضى أجمل سنين عمره فى زنزانة بائسة، رطبة وكريهة الرائحة. وفيها هناك سيشيخ، منسيًا من الجميع، وما من أحد سيهتم بمصيره، ولا أحد سيحضر إليه ويقدم له السجائر أو أقل مساعدة. محرومًا من الهواء، ومن الشمس، وبلا نور، وسيموت مصابًا بالسل... كان جالسًا على حافة السرير وقد دفن رأسه بين يديه، وانخرط فى البكاء وأخذ ينهنه. وقالت له الخادمة:

- الرجل الذى أتى وسأل عنك من قبل عاد مرة أخرى وهو موجود الآن هنا.

- من؟ الذى موجود هنا؟

سألها كما لو كان قد خرج عن صوابه، لونه صار أزرق وضاربًا إلى السواد. ومفاصله سائبة.

- قولى له أى شىء، والأهم من ذلك أن تجعليه ينصرف، لا يمكننى مقابلته.

لم تكن لديه الشجاعة لتحمل الضربة والألم من سماع خبر، لأن خبرًا واحدًا، هو كالطعنة التى...

- السيد موجود فى الصالة،.وينتظر حضرتك. أنا لا أعرف لماذا لا تريد حضرتك أن تراه، ثم أنا... عاد أكثر من مرة، أنا أظن...

- طيب قولى له يتفضل وينتظر، سأنزل له حالاً.

هناك سيبقى حتى آخر يوم فى الدنيا. وسيمضى هو بعيدًا بعيدًا حيث لا يمكن أن يعثر عليه، ولا أن

يقول له شيئًا... سيمضى بأسرع ما يمكنه، دون أن يحدث ضجيجًا، بلا شنطة سفر، وسيأخذ معه فقط النقود التى يحتفظ بها فى درج الكومودينو. والبالطو، والقبعة. فتح الشباك، فعل هذا بسهولة، ولم يكن الشباك شديد العلو. وتدلى بخفة حتى لا يحدث صوتًا. ومن على الناصية أخذ تاكسيًا، وأمر السائق أن يوصله إلى محطة السكة الحديدية دون أن يضيع وقتًا. الرجل لن يعثر عليه أبدًا، حتى لو لف الدنيا كلها وراءه، من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية بحثًا عنه. لن يسلمه أبدًا رسالته. لقد أراد أن يصيبه بأذى، أن يحطمه بخبر واحد مزعج، إلا أنه أثار شكه من أول لحظة. وها هو قد هرب. وهناك كان جالسًا فى الصالة، متوترًا، ومتجهمًا، وبالغ الكآبة، منتظرًا من سينزل، منتظرًا، منتظرًا وعندما أخذ يعيد حساباته ارتج من شدة الغيظ، سيلبس لونًا أخضر... سيكون الوقت متأخرًا حتى يدركه... لن يعرف أبدًا الخبر المشئوم سيحيا فى هدوء، وبسعادة... لقد كان محظوظًا جدًا عندما تمكن من أن ينقذ نفسه!.. ويهرب من الشباك... لقد أنقذ... لقد أنقذ...

الموظف فى شباك صرف تذاكر السكة الحديدية، والذى كان قد انتهى من صرفها، لم يكن مدركًا عندما طلب منه X «إكس» أن يعطيه تذكرة سفر إلى أى مكان.

# بيت ريفى بمشربيات

كانت الدنيا قد ليلت، وجابرييل بايى يستعد للخروج، وكان من عاداته أنه يلبس أول كرافتة يجدها أمامه، دون أن يشغل باله بكونها منسجمة مع البدلة أم لا. لكنه فى هذا المساء بذل جهدًا ليكون متأنقًا فى ملبسه. تطلع إلى نفسه فى المرآة لكى يضبط عقدة الكرافتة فرأى أنه نحيف البدن، وانحناء بسيط بدا على كيانه، ووجهه شاحب، ويضع نظارة بعدسات سميكة لقصر نظره. إلا أنه يرتدى بدلة لطيفة، ومكوية. بقى واقفًا معجبًا بمظهره، وقبل أن يخرج أعاد قراءة بطاقة الدعوة ووضعها فى جيب المحفظة. وعلى السلم التقى بعديد من الزملاء، وعلقوا كلهم على أناقته. تقبل دعاباتهم ولم يضق بها. وتوقف عند الباب ليسأل البوابة عما صارت إليه نزلة البرد. لقد تحسنت أيها الشاب. هذا ما قالته العجوز والتى كانت معتادة على أنهم يمرون من أمامها ولا يكادون يرونها.

فعندما حملت إليه الرسالة فى الصباح وجدته مندسًا بين الأغطية على سريره، يدخن فى صمت، ويتطلع إلى السقف، فتركت الرسالة فوق المكتب وخرجت. هكذا هم الشباب. لهم مزاج متقلب، كل يوم فى حال.

جابرييل بايى سار خلال الشوارع بخطوات واسعة وواثقة. شعر بأنه يتحرك بخفةٍ، وبرضا. كانت بقايا سحب ما تزال باقية فى السماء، ولم يكن هناك أناس كثيرون فى يوم الأحد وفى الشوارع يلتقون بشكل منفرد تقريبًا. وبالنسبة لهن فهو كان يحب التنزه فى المدينة بشكل دائم فى وقت المساء أو فى منتصف الليل. سار حتى أحس بالتعب. بعد ذلك دخل إلى أحد البارات، وانتشى باستمتاع، وعندها تذكر إليوت... (دعنا نمضى إذًا، أنت وأنا، عندما يتمدد المساء على صفحة السماء، مثل مريض مخدر على منضدة. دعنا نجتاز شوارع شبه مهجورة... (فى مرات لم يكن هناك من أحد يسمعه، لكن ذلك بالنسبة له، لم يكن بالأمر المهم)... الضباب الأصفر يحك خطمه بزجاج النوافذ بينما يلعق أركان المساء... (وفى مرات أخرى يأتى الموسيقيون الزنوج، ويجلسون لسماعه دون أن يتوصلوا إلى فهم أى شىء؛ ويرتجلوا فى التو واللحظة موسيقى ما من أعماقهم ليكونوا مصاحبين لقراءته)... والمساء، والليل ينام بالغ الوداعة... (والمغنى أكرمه وحياه بعدة كئوس)... لا لست أنا الأمير هاملت، ولم أولد لأكونه، وإنما أنا سيد من جلساء الأمير، وأنا فى خدمته من أجل أن أسُدَّ فى الموقف الذى يطلبنى فيه، وأريه

مشهدًا أو مشهدين... (من هو ذلك النوع من البشر الذى ينشد أشعارًا مثل هذه؟... تساءل الزبائن لمرات عديدة)... لقد بقينا فى كهوف البحر بالقرب من بنات البحر بتيجانهن من الأعشاب البحرية، الحمراء والبنية، حتى توقظنا أصوات آدمية فنغرق)... وعندئذ يمضى مع ضوء النهار شديد البياض، مجروحًا جرحًا بالغًا ليغرق فى الحلم.

فتيات راكبات بسكليتات دفعوه دفعة خفيفة، لكن ذلك لم يسبب له أى انزعاج. كانت سعادته هائلة حتى أنها لم تمكنه من أن يغضب بسبب قلة حياء بعض الفتيات. شعر أنه شهم، وواسع الصدر بل وبه ميل للتآلف والحديث مع الناس أيضًا. كان شغوفًا بأن يحيى مجاملاً كل من يلقاهم فى طريقه حتى لو كان لا يعرفهم: "مساء الخير يا سيدتى!"، "مع السلامة يا سيدى!"، "اسمحى لى أن أحمل السلة عنكِ!"، كان يحب أن يقول ذلك لسيدة عجوز مسكينة تحمل فوق رأسها سلة خبز.

بلغ الناصية حيث كان عليه أن ينتظر الترام، وقطرات من المطر بدأت تتساقط. رفع ياقة المعطف القصيرة، ولجأ للاحتماء بمظلة دكان بقالة ووقف تحتها. كم كان موقعه سيئًا، أن يصاحب خانا إلى بيتها هذه المرة، بعدما ألح عليها كثيرًا أن تسمح له بذلك. ودائمًا كانت هى ترفض، لكنها وافقت هذه المرة بفتور. بدأت تمطر عند وصولهما إلى البيت الريفى، وفكر

أنها لابد ستدعوه للدخول والمطر يشتد هطوله: "سيكون من الأفضل لك لو مضيت بسرعة حتى لا تبتل". ذلك ما قالته خانا له بينما كانت تفتح الباب الحديدى وتبتعد متجهة إلى البيت دون أن تلتفت وراءها. وفى هذه اللحظة فكر فى أمور كثيرة، فهو لم يتعرض أبدًا لمثل هذا الموقف المهين، ولم يشعر أبدًا بمثل هذا الإحساس بالمهانة. وبقى للحظة يتأمل البيت الريفى، بعدما ابتعد عنه وأخذ يتمشى فى أناة تحت المطر. وفى الطريق استعاد هدوءه وتوصل إلى الرأى النهائى فى كل ما جرى بتفسير سيئ من ناحيته. خانا لا يمكنها أبدًا أن تسىء إلى أى أحد، وعلى الأقل، فهى لا يمكن أن تسيىء إليه هو بالذات. وربما لم يكن من اللائق أن تدعوه للدخول معها فى هذه الساعة؛ لأنها تعيش وحدها... وصل الترام، وبعد أن قطع جابرييل بايى عدة خطوات بسرعة، نجح فى أن يلحق به. وألقى بنفسه على المقعد بجوار فتاة بالغة الشحوب والنحافة وهى تعتصر بعصبية جوانتى قديمًا بين يديها. (هذه المرأة فى كرب شديد) وأحس عندئذ برغبة قوية فى أن ينقل إلىْ الناس ولو قدرًا قليلاً من تلك السعادة التى يمتلئ بها فى هذه الساعة. أما الفتاة النحيفة فعادت تبحث فى حقيبتها عن شىء ما...

ـ يبدو أنها لم تعد تمطر الآن. قال هو ذلك ليبدأ الكلام.

ـ لكنها ستمطر أكثر فى المساء ـ ردت عليه بصوت ينضح بالمرارة. ألا يكفينا أننا الآن يوم الأحد، ومع ذلك فهى تمطر... ولحظتها تطلعت إليه بنظرة باردة، غير مألوفة أبدًا ـ وأحس هو بأنها تطل على خواء.

ـ هل تتسبب لك فى الحزن أيام الأحد هذه؟

ـ أيام الأحد، والأيام كلها، لكن... ـ وأخذت تتطلع من النافذة بينما يداها مستمرتان فى اعتصار الجوانتى القديم، وفجأة واصلت كلامها:

ـ أيام الأحد طويلة بلا حد... الواحدة عندها حاجات كثيرة عليها أن تقوم بها، ومع ذلك فهى لا حب أن تعمل شيئًا ـ يشلها كسل فظيع، فى الوقت نفسه عليها أن تغسل وتكوى ثياب الأسبوع كله ـ وبعد ذلك ينتهى يوم الأحد، فترقد الواحدة دون أن تقدر على تذكر أى شىء، سوى أن يوم أحد آخر مرّ، مثل أيام الأحد الأخرى كلها...

يا لها من فتاة مسكينة! لابد أن ما مرَّ بها، يجعلها تشعر بوحدة قاسية، وليس هناك من يحبها، وهى ليست جميلة بأى حال، وسيكون من الصعب بالنسبة لها أن تجد زوجًا أو خطيبًا بحالتها هذه من النحافة وانعدام الأناقة، وبشعرها الخشن الجاف وتسريحته التى تثير النفور، وبعينيها غير المعبرتين، وبشفتيها المزمومتين بشكل حاد، وبمكياجها الذى استعجلت وهى تحطه، وبفستانها البالغ السوء، وبالمرارة التى تبدو منقوعة فيها ـ وتذكر خانا لحظتها

وسعادته بها بانت على وجهه. وواصلت الفتاة النحيفة الكلام:

ـ المطر. مطر، مطر، دائمًا تمطر فى كل ساعة، وفى كل يوم... أم يا ترى حضرتك تحب المطر؟

ـ فى مرات كثيرة أتضايق من المطر طبعًا... طبعًا أتضايق. وفوق كل شىء، لو كان يتحتم علىّ أن أخرج. لكننى أحب جدًا أن أسمعه بالليل، وبالذات لو كان لا يصحبه صوت رعد أعلى من صوته هو نفسه، أحب صوته وهو يتساقط ببطء، وبشكل متواصل، قبل النوم، وأثناءه. وقاطعته الفتاة: "سأنزل فى المحطة القادمة، تروح مع السلامة... ومضت بكل نحافتها وبكل مرارتها حتى باب النزول.

أسرع بالانتقال إلى المقعد المجاور له بجوار الشباك. كان يحب أن يقوم برحلة طويلة. فى قطار مع خانا، يتطلع من خلالها إلى مرور المناظر المتنوعة دون أن يشغل نفسه بشىء. ويتعرف معها على أشياء كثيرة: مدن. ناس. يكون لديه أموال لينفقها دون حساب. كم سيكون أمرًا طيبًا أن يعد أمتعته ويسافر ولو فى هذه الساعة نفسها، فى الغد... اثنان صعدا، شاب وفتاة. الفتاة جلست بجوار جابرييل وهو بقى واقفًا إلى جوارها، رآهما سعيدين جدًا، يتحدثان بصوت منخفض، وأيديهما متشابكة، يضحكان... نظر إليهما بحب (إنهما سعيدان أيضًا!) سيكون شيئًا محببًا إلى نفسه لو امتلك هذه الثقة مع خانا، هذه المحبة وهذا

الإخلاص، إلا أنها شديدة الخجل، ومؤدبة للغاية، وهو لن يجرؤ على أن يمسك بيدها، خشية أن يضايقها ذلك، كم عليه أن يعمل، وكم يكلفه الشروع فى الخروج معها!

- دائمًا ما أبدو فتاة متجهمة، أنفر من الناس، بل وحتى عدوانية - ربما تحسين أنكِ أرقى منا - قال لها ميجيل ذلك فى أحد الأيام.

- أنت مشغول دائمًا، والمسألة أن خانا خجولة جدًا، إلا أننى أفهمها جيدًا، علاوة على ذلك، فإنها قد عانت بشدة من الطريقة التى مات أبواها بها، كانت ميتةً مروعة...

- أنا لا أناقش ذلك، فمن الواضح أنها كانت مأساة حقيقية، ولكن...

- الألم يجعل الناس يحبسون أنفسهم داخل أنفسهم وإن بدوا فى الظاهر متجهمين؛ فهذه فقط آلية للدفاع عن أنفسهم، حاجز يقيمونه دون وعى ليحتموا به من أى شىء يمكن أن يسبب لهم أذى مرة أخرى.

- يمكن أن يكون الأمر كذلك، لكن أيضًا يمكن أن تكون مشكلة خاصة بطبعها الألمانى - هذا ما قاله ميجيل. ليس هناك شك فى أن ميجيل لا يميل إلى خانا - وليس هذا غريبًا عليه، ميجيل عنده غباء داخلى حقيقى لا يسمح له بالنفاذ إلى الآخرين. هو قد يفهم فى كرة القدم، فى رقص الروك أندرول، فى الأمور التافهة. كم هو سطحى!...

. ودائمًا تفوح منها آثار رائحة الفورمالين وحبل الرفع.

وانصرف جابرييل دون أن يرد عليه. أى غباء هذا الذى جعله يقصده! ومع أنه كان على يقين من أن السبب الرئيسى بالنسبة له أيضًا، وكانت نتيجته فظيعة جدًا، كان هو هذه الرائحة التى سرحت خانا من خدمته، وجعلت خانا تبدو وقد تشربت تمامًا منها.

وهكذا كان لابد أن تذهب، لأنها طوال تلك الأيام وهى تستعمل تلك المواد، وهو، فجأة، كان قد تعود عليها ولم تعد تضايقه مرة أخرى. وعندما سيتزوجان لن يسمح لها بالاستمرار فى العمل بمدرج التشريح، وسيمضى فى إقناعها بالعدول عنه! لأنها أخذت هذا العمل بجدية زائدة وبدت له شديدة الاهتمام والغوص فى البحث لأنها كانت مقتنعة بأنها سترقى إلى أن تكون شخصية عظيمة فى مجال التحنيط، فكانت تدرس الطرق التى استعان بها المصريون ليحافظوا بها على أجساد موتاهم. وعرفت طرقًا كثيرة ومتنوعة، وامتلكت وصفات طبية وتعاويذ خاصة للدرجة التى جعلتها على يقين راسخ، لدرجة أنها فكرت أن تجريها عمليًا فى أسرع وقت، فضلاً عن أنها كانت تكتب كتابًا. هذا ما كان قد قاله لها بينما يفرك يديه استعدادًا لطرق هذا الموضوع، ولو أنها ستفضى إلى نتيجة صعبة! والدكتور هوفمان أيضًا كان لديه اعتراض، إذ كان هو الذى يتحمل مسئولية العمل فى المستشفى. وهى كانت معاونة له، وأى طبع صارم كان

يتسم به الرجل العجوز، وعندما كان يخرج عمل ما بشكل غير سليم، كان يفرك كفيه، ويبصق، ويهرش لحيته الكثة، ويرتدى قناعًا متخيلاً!... ولكن أى جراح يفوق أى تصور كان هو!. ذلك الثقب فى لوح الكتف الذى... ورأى جابرييل أن ذلك كان فعلاً ما يراه، وبسرعة عالجه.

كان المطر قد توقف، فشم رائحة الأرض المبتلة، والعشب المبتل. كان الجو هذه الليلة منعشًا، لكنه لم يكن باردًا، وكان من نتيجة ذلك أن المشى يكون محببًا خلال ذلك الطريق الواسع الطويل بأشجار السنديان على جانبيها والتى تقود إلى البيت الريفى. نظر فى ساعته. باقى عشرون دقيقة لتمام الساعة الثامنة. سيصل فى الوقت المضبوط. جرسها يقول إنها بانتظاره فى الثامنة. كان عليها أن تحيا حياة هادئة هنا، بدون أى ضجيج، فى جو بالغ النقاء، إلا أنها فى عزلة شديدة، ووحيدة إلى أقصى حد. خانا لم تكن تحب تلك الجولات فى الليالى، والتى يمكن أن تتعرض فيها لأى خطر؛ كانت هناك بيوت قليلة، وقلة من الناس، ولو صرخ أحد، فلن يسمعه أحد. وفى الجرائد بشكل دائم أخبار منشورة عن قطاع الطرق، وعن... لن أقوم بأية محاولة للاقتراب من خانا وسط هذا الصمت،... يا للمسكينة!. أيضًا لابد وأنها قد عانت، ولأكثر من شهر، كان قد مرَّ دون أن يكون عنده أخبار عنها. ويبدو أنه لا يمكن تفسير سلوك خانا.

تذكر تلك الليالى التى ذهب فيها إلى البيت الريفى محاولاً بلا جدوى أن يراها، أو تلك الأوقات الطويلة من الانتظار على باب مدرج التشريح. ربتت عليه بأطراف أصابعها، وأحس براحة هائلة، وبذلك انتهى إحساسه بالضيق. والأفضل له أن يتم زواجه سريعًا؛ باحتفال بسيط، وبدون مدعوين. وسوف يخبر أبويه عندما يكونان قد تزوجا، وبهذه الطريقة لم يمكنهما أن يعترضا، فهو يعرفهما جيدًا، أمه يمكن أن تتمارض، وتدعى أن حالتها خطيرة، وربما لدرجة الموت. هل فكرت خانا فى أن يعيشا فى البيت الريفى؟. لا أعرف ما الذى قررته. ولا أجرؤ على الانتقال بها إلى بنسيون، إلى غرفة واحدة فقط وسرير ضيق وصلب والحمَّام عشرون طالبًا يشاركوننا فيه، والطعام بالغ السوء للدرجة التى قد تجعلك تبقى دون أكل. يجب عليه أن ينحى كبرياءه جانبًا، وأن يذهب إلى البيت الريفى. فهو على الأقل سيتمكن من مواصلة دراسته واستذكار دروسه فى هدوء، بعيدًا عن ضجيج التراموايات، وناس تثير الإحساس بالضيق، وحدهما فقط هو وخانا... .

عندما وصل إلى البيت الريفى، وجده كالمعتاد محاطًا بالظلام. والمشربيات لا تسمح للنور بالداخل أن ينفذ من خلالها، والبوابة الحديدية كانت بلا قفل، ونجح جابرييل فى اجتياز الحديقة حتى باب البيت. ضغط على زر الجرس. وسمع رنينًا واحدًا منها.

ضغط عليه مرة أخرى، وفى النهاية فتحوا له الباب. وهناك بالداخل كانت خانا فى فستان حريرى رمادى فاتح تقريبًا، ملتصق بجسمها، والشعر الأشقر مرسل ومنسدل على الكتفين، وحيته كما لو أنها لم تره البارحة. ومرتبكًا بشدة واصل السير ليجتاز ممرًا معتمًا إلى الصالون المضاء بفيض من الأنوار. كانت صالة مفروشة بموبيليا إمبراطورية، ومزينة بلوحات اغلبها صور لأشخاص، بآنية من القيشانى، وبالمصابيح، وقماش الجوبلين، وبيانو ألمانى صغير وتماثيل صغيرة من المرمر، ونجفة كبيرة معلقة فى منتصف الصالون...

ـ هذه صورة شخصية لأبوىَّ ـ قالت له خانا فجأة مستعرضة صورتين معلقتين فوق المدفأة.

ـ إنهما يبدوان في أحسن صورة ـ رد عليها جابرييل بلطف، وبطريقة مُجاملة.

ـ نعم، لقد كانا جميلين فى الحقيقة... ومن ناحية أخرى فالمصور بارع بما فيه الكفاية، فالذى قام برسمهما رسام نمساوى كأن مطاردًا! والذى قام بحمايته هو أبى. إننى مفتونة باللون ونقائه، ورقة المعالجة، لاحظ النضارة فى لون البشرة، وطراوة الشفاه، إنها تبدو كما لو أنها...

خطوات فى الممر قطع صوتها استرسال حديث خانا، التفتت متطلعة ناحية مدخل الصالون، وأيضًا تطلع جابرييل وهو يفكر بأن شخصًا ما آخذ فى الظهور...

- انظر كم أن هذا البيانو جميل - قالت ذلك خانا، فى الوقت الذى كانت تفتحه وتداعب أصابع البيانو - ماما كانت تعزف عليه بشكل رائع.

وقاطعها جابرييل وهو يسألها:

- وأنتِ، هل تعزفين أيضًا؟

- كنت أحب أن أسمعها وهى تعزف - واستمرت هى كما لو أنها لم تسمع السؤال من جابرييل -، فى الليالى كانت تعزف مقطوعات لموتسارت، ولبرامز، وكان أبى يقرأ الصحف، بينما أستمع إليها وأنا مفتونة بها... كانت يداها رقيقتين، الأصابع طويلة، تتنقل بخفة وهى تعزف بعذوبة وبصوت أقرب إلى الهمس كانت تقول لنا أشياء كثيرة وهى تعزف... مرة أخرى وصلت الخطوات حتى الباب ولبث جابرييل ينتظر؛ لكن أحدًا لم يدخل، وكعادتها عندما لا يعجبها شىء، رفعت خانا حاجبيها وأغلقت البيانو بشكل مفاجئ. قدمت سيجارة لجابرييل ودعته ليجلس واستلقت هى على كرسى كبير بمساند مكسوٍّ بقطيفة خضراء غامقة، مختلفة عن بقية الموبيليا. ووجد جابرييل نفسه غير مستريح أبدًا فى ذلك الصالون الأنيق المزدحم بمثل هذه الأشياء القيمة، وتحت وطأة مثل هذه الذكريات. كان يحب أن يتكلم مع خانا، فقد ذاكر الحديث المتوقع بينهما كلمة كلمة. والآن هو لا يعرف كيف يبدأ، وفوجئ بأنه بطىء الفهم، وممل، وبدأ يحس بأنه عصبى، وتمنى لو كان لقاؤهما هذا قد تم على مقهى

ما، أو فى متنزه عام، فى أى مكان غير هنا... وألقى بنفسه على كرسى قريب منها:

ـ لقد مرت أيام كثيرة دون أن أعرف عنك. قال لها ذلك محاولاً أن يبدأ حديثه.

ـ هنا كان يجلس بابا دائمًا، أحيانًا كان يبقى فيه وهو نائم، كان شديد الحنو علىَّ!

عاش فى تعب. كان يشتغل ويتعب كثيرًا، حتى لا ينقصنا أنا وماما شىء، كان يقول لنا ذلك دائمًا عندما كنا نعاتبه، مسكين بابا!. وأحيانًا كان يلعب الشطرنج مع الدكتور هوفمان أيام الأحد، وقت العصر، وكانت ماما تقدم لهما الشاى والحلويات، وبعد ذلك تمسك بشغل التطريز، دائمًا كانت ترسم بخيوط التطريز زهورًا وفراشات، أزهار خوخ وأزهار بنفسج، ومن حين لآخر تترك القماش الذى تطرزه وتتابع بابا وهو يلعب مع الدكتور هوفمان. كانت تتطلع إليه فى حنان غامر كما لو كان طفلها. وبابا كان يحس بتلك العيون التى تتطلع إليه، ويبحث عن عينيها فيبتسمان، "يا سيدى على المخطوبين!" اعتاد أن يقول ذلك عنهما ذلك العجوز هوفمان... شخص ما لابد وصل لحد الباب. كان بإمكان جابرييل سماع صوت أنفاس متسارعة. سكتت خانا فجأة وتجمدت أسارير وجهها، ولم ير جابرييل أبدًا ذلك التعبير بمثل هذه القسوة، ولا بمثل هذا البرود، ولا بمثل هذا الاختلاف عن هذا الوجه الذى أحبه وعن تلك التى احتفظ بها

فى داخله. استمر فى إصغائه، والتنفس كان قريبًا من الباب، وكان يصل بنفس القوة، وأكثر هيجانًا، كما لو كان ذلك لحيوان مفترس فى وقت طلب التعشير... أحس بالشر، وشعر بحالتها تسوء، وفى كل مرة تسوء أكثر، منزعجة من كل شىء، ومنه هو نفسه، هذا الجو سبب له إحساسًا بالاختناق، تلك الخطى، ذلك التنفس، تلك المرأة بابتعادها هذا عنه، مثل امرأة لا يعرفها. وكان عليه أن يعد بعض السيناريوهات، إذ لابد أن يخطط لما ينبغى أن يقوله لها، ولما سترد به عليه. كل شىء. والآن عليه أن ينسى كل شىء. هو لا يعرف بالفعل ماذا يقول، ولا عن ماذا يتكلم. ورجع ينظر إلى اللوحات، وللصور الشخصية، وللتماثيل الصغيرة، وقماش اللوحات من الجوبلين مزدحم بالأشخاص الذين يرقصون فى الريف فوق العشب، النجفة الكبيرة التى تضىء الصالون، كلهم يبدون صارمين وبأعينهم، آلاف الأعين التى تراقب، تقترب منه شيئًا فشيئًا، والتنفس خلف الباب، ذلك التنفس الذى بدأ يثير أعصابه.

- كفى الآن يا ڤالتر! - صرخت خانا فجأة - قلت لك كفى!

قام جابرييل وذهب ليجلس بجوارها، وأخذ يدها، كانت باردة، وغارقة فى عرقها...

- خانا، حبيبتى، لنخرج من هنا، هيا بنا لنتمشى قليلاً، لنتحدث، هيا بنا لـ...

وانتزعت هى يدها وحدقت فيه بثبات. وعندئذ راى هو عينيها عن قرب، وللمرة الأولى فى تلك الليلة كانتا تلمعان بشكل لا يمكن تصديقه، وحدقتا العينين، الفاضحتين هائلتا الاتساع، غارقتان فى الدموع... احس بقشعريرة تجتاح ظهره، بينما الدم ينبض بشدة بالصدغين... نهضت خانا ومضت لتضرب الجرس. لم يظهر أحد، عادت تضرب الجرس ولم يكن هناك رد. وصرخت خانا:

- أريد الشاى ساخنًا جدًا.

وأراد جابرييل أن يخرج من هناك، يتنسم هواءً نقيًا، وألا يرى أكثر من ذلك الصور الشخصية، وألا يرى البيانو، أراد أن يخرج من هذا الصالون المختنق بهذا العالم من الأشياء، وبهذه الذكريات العديدة، من ذلك الليل المشوش، من ذلك الذهول. النجفة الكبيرة بلمباتها المئة زادت من حرارة الجو. أحس أنه بحاجة إلى الهواء، والهواء لم ينجح فى أن ينفذ من المشربيات، والباب الزجاجى المؤدى إلى الجنينة وجده مقفلاً... ودقت ساعة المدفأة دقات منتصف الليل. وكانت الليلة كالأبد بالنسبة لجابرييل، والوقت صار خطًا لا يمكن بلوغ نهايته، وعادت خانا لتجلس على الأريكة نفسها وأشعلت سيجارة.

- ما الذى جرى يا خانا؟ قولى لى.

- هكذا كنت فى ذلك الحين. قالت هى مشيرة إلى

الصورة التى لشابة ـ "إنها ليست معى." فكر جابرييل وهو متألم.

ـ فى اليوم الذى صوَّرونى هذه الصورة كنت قد أكملت السادسة عشرة، ألبستنى ماما الفستان، وكان من الأورجانزا الأزرق؛ وقال بابا "إنه من اللون نفسه الذى للعينين". وفى المساء ذهبنا لتناول المثلجات وبعدها دخلنا المسرح، وماما علقت على المسرحية بأنها جريئة إلى حد ما بالنسبة لطفلة، وأضاف بابا بابتسامة "هى الآن شابة، وإنه لشىء طيب أن تذهب لتعرف بعض الأشياء."

ـ الدكتور هوفمان أهدانى، ونحن فى المسرح، الكوليه الذى عندى، أليس ظريفًا؟.. إنه من الزجاج الصخرى وبلون التركواز، اللون الأزرق كان دائمًا لونى المفضل، وبالنسبة لك، هل هذا اللون يعجبك؟

ـ إنه لون عينيكِ، ولكن... لماذا لا نتكلم عنا؟

سمع الضجة الآتية من منضدة الشاى والتى يدفعها شخص ما، فقامت خانا فى عجلةٍ وخرجت من الصالون ثم عادت بالمنضدة. وتذكر جابرييل فى هذه اللحظة المرة الأولى التى رآها فيها بالمستشفى، وهى تدفع أمامها ذلك (الترولى) الذى ينقلون عليه الجرحى

ـ لقد أرسل يقول: إنه لم ينته بعد من تجهيزه.

هذا ما قالته خانا للدكتور هوفمان.

ـ حسنًا يا خانا. والآن لا تعطلينى.

انتحت جانبًا دون أن تتكلم أكثر من ذلك ثم جلست على أحد المقاعد؛ ومنها هناك كانت تتابع بنظراتها باهتمام شديد يدى الدكتور هوفمان وهما تقومان بعملهما ببراعة فى جسد ذلك الميت.

سألته خانا وهى تقدم له الشاى:

ـ بالكريمة أم سادة؟

ـ أحبه سادة.

وعندما كانت تناوله الفنجان؛ عاد جابرييل للنظر عن قرب للحدقتين الهائلتى الاتساع والمغرورقتين بالدموع، وأحس بشىء غريب بدا له تقريبًا أقرب إلى الخوف، "تلكما العينان اللتان لا أجسر على النظر إليهما مباشرة عندما أحلم، تلكما العينان اللتان لم يستطع هو أن يحتمى بهما فى وحدته، ومن تلك الليالى التى يتجول فيها خلال شوارع المدينة، وليس له ملجأ أكثر من أن يرتمى على مقعد فى بار ويشرب، يشرب حتى يجبره ضوء النهار أن يندس بين الملاءات المتسخة لسريره، سرير الطالب.

ـ هل السكر مضبوط؟

ـ نعم، شكرًا.

كان هذا رده هو عليها. أى أهمية يمكن أن تكون الآن للسكر، الكلمات، إن كانتا كلها بلا معنى، ضائعة فى هذا الفراغ، فى الحلم ربما، أو فى أعماق البحر،

فى وهمها، نزوتها، أو فى الكبرياء الشخصى الذى يصدقه، تخيله مستحيلا تلك الموائد، كل شىء مزيف، منافق، مرسوم، وربما مجرب. وأحس فجأة أنه يكره نفسه بشدة، وبالألم من أنه أخرق إلى هذا الحد، وأعمى هكذا، ضرير، متألم من حبه للناس كطفل. ونظر إليها بحقد إلى حد الغضب الهائل، بغضب هائل، نعم، منفجرًا فجأة ومنفلتًا بشكل رهيب. وهى ابتسمت له تلك الابتسامة التى يعرفها جيدًا، تلك الابتسامة البريئة والتى ما أكثر ما أثرت فيه...

ـ هل الشاى ليس ساخنًا جدًا كما يجب؟

لم يرد عليها. واستمرت تنظر إليه وهى مبتسمة، الحدقات الواسعة، الأسنان بيضاء، حادة، رهيفة، متناسقة، خلفها الوجوه تنظر له وتبتسم... وقع الخطوات وصل مرة أخرى حتى الباب...

ـ قلت لك ألا تتضايق، ألا تتضايق.

وانتبه جابرييل إلى أن جبينه ويديه مبتلان بالعرق، وبدأ يحس بجسمه ثقيلاً، وبتنميل غريب راح ينتشر شيئًا فشيئًا ويتغلغل فى كيانه كله، وبدأ يعانى من دوار فظيع، وخاف أن يقع فجأة من طوله بين لحظة وأخرى فى بئر عميقة. فك عقدة الكرافتة، وجفف العرق. وكان فى حاجة إلى الهواء، إلى أن يتنفس، فسار حتى النافذة. كان قد نسى المشربيات (هنا كان كل شىء فى ذاكرته، حتى الهواء). وفى تثاقل، استلقى

فى المقعد من جديد. أشعل سيجارة ونظر إلى خانا، كما لو أنه ينظر إلى شىء، حتى أنه لم يقل شيئًا.

- أنت تحب تعرف بيتى، حياتى... ها هى هنا امامك!

الوجه المبتسم لخانا راح يتراجع وينمحى، وظهرت الأسنان البيضاء التى تكشف عنها الشفتان المبتسمتان، الحدقتان الواسعتان الفاضحتان الضائعتان رجعتا مرة أخرى والآن هى تضحك، تضحك أكثر من كل مرة دون أن تتوقف... مسح على عينيه براحة يده، ودعك عينيه، استعاد كل شىء، هذا المذاق الغريب للشاى، كل ما يدور حوله، الصور، قماش الجوبلين، التماثيل الصغيرة، خانا وهى تروح وتجىء وتضحك. النجفة الكبيرة ذات الألف لمبة مضاءة، أعمته. البيانو الأسود، الخطى فى الممر، الشبابيك، المشربيات البيضاء، التنفس، وجه خانا الأبيض، الشاهق البياض، يتلاشى فى سحابة، ثم يعود، ويقترب، الأسنان، الابتسامة، الخطى من جديد، التنفس خلف الباب، الأشخاص يرقصون فوق العشب على قماش الجوبلين، يخرجون من هناك، يرقصون فوق البيانو، وعلى المدفأة، هذا الطعم، هذا المذاق الغريب جدًا للشاى، وخانا قالت شيئًا ما، رآها وهى تقوم وتفتح الباب الزجاجى المؤدى إلى الحديقة وتخرج.

جابرييل لحق بها، زلت قدمه، وعندما وصل إلى الباب تنفس الهواء الطلق، هواء الليل المنعش، وأحس

بأنه استرد شيئًا فشيئًا قدرته على المشى، وسارت خانا فى طرقة ممهدة باتجاه قلب الجنينة، ومشى وراءها ببلاهة وهو يترنح، وكل مرة يحس بأنها آخر خطوه، وأنها خطوته الأخيرة فى ضباب تلك الليلة من الخريف؛ كل شىء انهار بداخله، جسده لا يطيعه، وإرادته وحدها هى التى تحمله، إنها هى التى تجر الجسد، وسمع الخطى الآتية خلفه، قاسية، صماء، ثقيلة، لم يحاول، ولم يرد حتى أن يلتفت إليها، فذلك لم تعد له فائدة الآن، ولم يعد باستطاعته عمل شىء، فقد ضاع كل شىء. الآن ليس هناك أمل، ولا رغبة فى البحث عنه. وعلىَّ أن أخلص وأنتهى، وأن أسقط فى النسيان مثل حجر فى بئر، أتلاشى فى الليل، فى ظلمته، أنسى كل شىء. وحتى اسمها، رنة صوتها... والخطى فى كل مرة تقترب أكثر، فأكثر. وظل ظهر أمامه، فى مواجهته، وهو لا يعرف بالفعل أى الظلين هو ظله، الخطى صارت الآن بجواره، وهذا التنفس اللاهث...

خانا كانت قد وصلت إلى بوابة فى قلب الجنينة، وهناك دخلت. وعندما نجح فى الوصول، كان الظلان متجاورين، لطمة من هواء حلو ومثير للغثيان ضرب بسوطه وجهه، وقلب معدته، حاول الخروج إلى الجنينة مرة أخرى، وحاول أن يتنفس لكنهم بالفعل كانوا قد أغلقوا البوابة. كان ظلام، وفقط كان هناك ضوء شاحب من القمر، ينفذ مخترقًا المشربيات، وميز خانا تقريبًا فى وسط الصالون، ومن هناك رآه متحديًا بين

تابوتين من الصلب... ذلك الهواء ثقيل، حلو، نتن الرائحة، يخترقه حتى دمه نفسه، والعرق البارد يجرى فوق جسده كله، أراد أن يلتمس أية مساعدة، وتعثر فى شىء ما، ووقع على الأرض؛ شىء ثقيل جدًا، هائل، سقط فى نفس اللحظة فوقه؛ تدحرجا على الأرض فى الظلام. وبين الظلمات والصرخات، والقهقهات، رائحة الجثة، فى الأتير والفورمالين، بين اللطمات الصماء، المتوحشة، من حيوان مفترس، مجنون، تشخر، ويعلو شخيرها أكثر فى كل مرة... والعينان الواضحتان فاجآتاه كما لو أنهما عينا حيوان مفترس، تشعان فى الليل، مهلكة، وكئيبة... وفوق جابرييل أخذت تقع أمطار من اللطمات، مختلطة بقهقهات مرعبة. وقالت خانا:

ـ هس، لا تحدث ضجة أكثر، إذ يمكنك أن توقظهم.

# الـزنـزانـة

عـنـدمـا نـزلـت مـاريـا كـامـينـو لـلإفـطـار، كـانت أمـهـا وأختها كلارا مازالتا جالستين فى حجرة الطعام. لأن السيدة كامينو لا تبدأ تناول الطعام ما لم تكن ابنتاها الاثنتان على المائدة. وصلت ماريا وهى فى حالة من الصمت. عند خروجها من غرفتها كانت تسمع خطواتها، وخيل لها أنها تسمع صوتًا عاليًا لمشيها، وهى لا تريد أن تسترعى الانتباه ولا أن يلاحظنها ذلك اليوم. كما أنها لا تحب أن يشك أحد فيما جرى لها. وعندما قدرت أن أمها وأختها مازالتا فى غرفة الطعام؛ انتابها الضيق. فسوف تسألها أمها عن سبب تأخيرها وجعلهما تنتظرانها.

دخلت حجرة الطعام وهى فى حالة من الارتباك الشديد، وعندما انحنت لتقبِّل أمها لمحت ملامحها وهى منعكسة فى المرآة الإيطالية الكبيرة، وكانت شاحبة جدًا، وعيناها غائرتان... وعلى الفور قدرتا أن

الأمر يتعلق به. وشعرت أن ريحًا باردة تجتاح ظهرها. لم توجه لها السيدة كامينو أى سؤال، لكنها فى أية لحظة سوف توجهه إليها، وهى تدرك أن عليها أن تكون جاهزة برد بعذر ما. ستقول إن الساعة كانت متوقفة. وبينما كانت تقشر تفاحة، كانت تعرف أن أمها وكلارا تلاحظانها. ربما يشكان بالفعل، أنزلت عينيها نحو الأرض وتوقعت أن وجهها لابد قد احمر خجلاً. ولكن لحسن الحظ أن كلارا كامينو بدأت تتكلم فى تلك اللحظة عن عرض لأزياء الموضة لأغراض خيرية يعده ناديها - أنا أحب جدًا أن تخرجى معنا - وجهت كلامها فجأة لماريا. - طبعًا سأذهب، وشددت على أن تؤكد هذا الاقتراح السيدة كامينو، قبل أن تتمكن ماريا من أن تقول شيئًا. ابتسمت ماريا لأمها ابتسامة شاحبة واستمرت تتناول الشيكولاتة. كان عليها أيضًا أن تتكلم عن شىء ما، تتحدث مع أمها وأختها، لكنها خائفة من أن يفضحها صوتها، وأنهما سيقدران أى شىء ما حدث، وأنها لن تستطيع أن تقوله أبدًا لأحد. فأمهما يمكن أن تموت لو سمعت بخبر كهذا. وكلارا قد لا تصدقه. ألا تحبين قليلاً من المربى؟. وتجرأت وسألت والدتها مقربة إليها بخجل مربى البرتقال التى أعدتها فى اليوم السابق. - شكرًا يا حبيبتى - آه أنها التى أعددتها لكِ! قالت السيدة كامينو وهى تنظر إليها برقة. لقد حدث ذلك بالأمس، وكم يبدو ذلك بعيدًا أن يمكنها عمل المربات، والحلويات، وتجلس لتخيط الملابس إلى جوار أمها.

وتقرأ لساعات طويلة وتستمع إلى الموسيقى. والآن لم تعد تستطيع فعل شىء من ذلك، ولا أى شىء. الآن ليست فى سلام ولا هدوء. عندما انتهين من الإفطار؛ صعدت ماريا إلى غرفتها وأخذت تنتحب بلا صوت.

تقريبًا فى السهرات كلها تلعب السيدة كامينو وكلارا "الكوتشينة" مع ماريو أولاجيبيل، خطيب كلارا، وابن خال ماريو، خوسيه خوان. وماريا لم تكن تحب لعب الكوتشينة، فأوراق الكوتشينة تبدو لها مملة ولا معنى لها. وبينما هم يلعبون، كانت ماريا تجلس بقرب المدفأة تشغل نفسها بشغل الإبرة فى صمت. وتتوقف عن الشغل الذى بين يديها فقط لتقديم "الكريم كراميل" أو الشراب الذى تكلفها به أمها.

فى تلك الليلة طلبت ماريا منهم أن يسمحوا لها بمشاركتهم فى اللعب. ظلوا للحظة مندهشين بشدة، والسيدة كامينو شعرت بالرضا للاستجابة القوية "لأن الصغيرة ماريا بدأت تظهر كواحدة اجتماعية.". كانت قد فكرت فى احتمال أن ينجح اللعب فى تسليتها قليلاً. لكن محاولتها لم تفد بشىء. فلم تكن قادرة على التركيز وكان لعبها بطيئًا بشكل خارج عن جو اللعب، وكانت تتطلع كل لحظة إلى الساعة التى فوق المدفأة، وترقب الأبواب، وتتنصت على وقع الخطوات، وكل مرة يكون أداؤها فى اللعب سيئًا تنزعج جدًا ويحمر وجهها. وكانت السيدة كامينو تواصل تدخين سجائرها بمبسمها الطويل العاج. "هيا يا حبيبتى، هيا

فكرى فى لعبتك" . تقول لها ذلك بين حين وآخر حتى لا يفتر حماسها. وخوسيه خوان يبتسم لها كما لو أنه يحب أن يشجعها. "فى المرة القادمة سوف تلعبين أحسن، لا تشغلى بالك . قال لها ذلك وهو يودعها" وصعدت ماريا السلم ببطء إلى غرفتها، وعندما فتحت الباب، فوجئت تمامًا بتلك الطلعة.

السيدة كامينو أبدت سعادتها البالغة لرؤيتها ماريا وهى تقضى الأيام وهى تعمل باهتمام. "هذه البنية دائمًا مرهقة، وليس لها حماس لشىء، ولا هدف، والآن هى فى حالة نشاط دائم" . وماريا بذلك قد حققت غرضها؛ فأمها وكلارا تعتقدان الآن أن صحتها تتحسن، وأنها سعيدة بنشاطها. فقد كانت تلك هى الطريقة الوحيدة لتتحاشى أن يثار شكهن فيما حدث. قضت ساعات فى ترتيب غرفة الكراكيب فى العلِّية، وحجرة خزين البيت (الكرار) وتنفض التراب عن المكتبة. وأمرت بالعناية بدورات المياه، والغرف الضيقة. لقد اعتقدت أنها تسلى نفسها، ولم تستطعن أن تضبطنها وهى فى كربها الذى اكفهرت منه أساريرها ولا يديها المرتعشتين والثقيلتين. ماريا لم تستطع أن تبعد عن تفكيرها ولو للحظة واحدة، تلك الصورة. تعرف أنها محكوم عليها طوال حياتها بأن تعانى هذا العذاب الفظيع وهى التى تهدئها وبدت لها الأيام قصيرة، تمر بسرعة كما لو أنها تتسرب من بين أصابعها، والليالى تبدو لا نهاية لها، فقط من التفكير بأن ليالى أخرى أكثر قادمة. ترتجف ويزداد شحوبها.

وهو سيقترب ببطء من سريرها حتى يصل إليها، وهى لن تستطيع أن تفعل شيئًا، لا شىء...

ماريا كامينو قدرت فى يوم من الأيام أن خوسيه خوان أولاجيبيل يمكن أن يكون ملاذها وربما خلاصها الوحيد، لو استطاعت الزواج منه فسوف تسافر كثيرًا، وتذهب بعيدًا، ويصبح عندها ما يكفيها من المال، وهو بمقدوره أن يأخذها إلى حيث تحب، حيث لن يلقاها إلا وهى قد قاومت خجلها الطبيعى وبدت جديرة بتبادل الحب معه، والحديث إليه. هذا الاندماج الجديد لماريا لقى قبولاً كافيًا ليس فقط من خوسيه خوان أولاجيبيل، ولكن من العائلة كلها، كما أنه سيسهل الأمور كلها. وعندما يكونون لا يلعبون الكوتشينة، كانوا يقضون السهرة فى تبادل الحديث فيما بينهم. واكتشفت ماريا كم هو ممتع الحديث معه. وبدأت تشعر بأنها تكون فى حالة طيبة عندما تكون فى صحبته، وتنشغل إلى حد ما عن همومها. وشيئًا فشيئًا بدأت تعرف الحنان والأمل. وبدءوا فى تصور مشاريع واتفاقات وفى فترة قصيرة أظهرت خاتم الخطوبة، وتحدد للزفاف الشهر التالى لشهر يناير. لكنها كانت راغبة فى التعجيل بموعد الزفاف، ولتهرب من ذلك العذاب الفظيع الذى لابد وأنها كانت تعانيه ليلة بعد أخرى؛ ومع ذلك لم يكن ممكنًا أن تثار الشكوك حول أية إشاعة. وزفافها لابد أن يتم بشكل عادى تمامًا، كما لو أن شيئًا لم يحدث، وكما لو كانت هى فتاة عادية وأليفة. وفى ليالى السهر سعت إلى

الاحتفاظ بخوسيه خوان أكبر وقت يمكن بالقدر الذى تنقضى به الساعات وتقترب فيه اللحظة التى سيودِّعون فيها أولاجيبيل. وبدأت ماريا تعانى من ذلك الهلع الذى لا يمكن السيطرة عليه من بقائهما وحدهما، فربما هو مازال ينتظرها هناك فوق، فى غرفتها. وهى، بلا قدرة على أن تفعل شيئًا لتهرب منه، بلا قدرة أن تقول لخوسيه خوان أن يحملها هذه الليلة نفسها ويخلصها من ذلك العذاب المهول. لكن هناك، كن أمام أمها وكلارا اللاتى لا يعرفن شيئًا ولا تستطعن معرفة ذلك أبدًا، رأوا ماريا تصعد إلى الأتوموبيل وبعدها أغلقت الباب، ويأس أصم حل بها.

شهر أكتوبر ونوفمبر، كانا قد انقضيا فى الاستعدادات، والمشتريات من أجل حفل الزفاف. كان خوسيه خوان قد اشترى بيتًا قديمًا لكى يعيد بناءه بمستوى أرقى. وفى غاية السرور، رافقته السيدة كامينو ابنتها إلى جميع الأماكن التى كان من الضرورى بالنسبة لهما أن تذهبا إليها. وكانت تساعدها فى اختيار ما تريد أن تشتريه. كانت ماريا مجهدة، وفى كل الأيام، بالنهار وبالليل، كان هناك شىء لابد من عمله: اختيار الأقمشة، والموبيليا، وأطقم الأطباق والأوانى للمائدة، والذهاب إلى الخيَّاطة، والأخرى التى ستقوم بالتطريز، ثم أيضًا مناقشة المهندس المعمارى فيما يتعلق بالبيت؛ اختيار ألوان الدهانات للغرف، ألوان السجاجيد، والستائر... وكان تقديرها وهى بالغة الحزن، وأملها قد خاب، إن هذه اللعبة

السخيفة من الإيصالات قد أنهكتها، وأنها الآن لم تعد تريد أن تعرف شيئًا، لا عن الزفاف ولا عن خوسيه خوان، ولا عن أى شىء. وبدأت تنزعج عندما تسمع أنه جاء، كما حدث لمرات كثيرة خلال النهار، بحجة أنه جاء ليستشيرها فى أمر ما. وبدأ صوته يثير استغرابها، والبوسة التى بلا طعم التى يعطيها لها وهو يودعها فى آخر الليالى بشفتيه الباردتين اللزجتين. وكذلك حديثه عن "البيت، الستائر، السجاجيد، البيت، الموبيليا الستائر..." لم تستطع الاحتمال أكثر من ذلك. وبالفعل لم يعد مهمًا الآن؛ أن تنقذ أم تتعذب طوال حياتها، إن ما تريده فقط هو أن تستريح من هذا التعب الرهيب. من الجرى طوال اليوم من ناحية، لناحية أخرى. من الكلام مع مائة شخص، من قول رأيى، من اختيار الاحتياجات، من سماع صوت خوسيه خوان... تريد أن تبقى بغرفتها، وحيدة، ودون أن ترى أحدًا ولا حتى أمها ولا كلارا، فقط تكون وحدها، تغمض عينيها، تنسى كل شىء. لا تسمع ولا كلمة واحدة، ولا عن شىء. "البيت، الموبيليا، السجاجيد، الفستان الأبيض، الستائر، البيت، الخياطة، الموبيليا، أطقم السفرة، المائدة...".

بدأت تشعر ببرد ديسمبر، وفى إحدى الليالى أعدت كلارا بعض كئوس "البونش" كانت ماريا نائية بكيانها كله، تطرز قرب المدفأة، والسيدة كامينو وكلارا تلعبان لعبة الكانستا الأورجوانية(*) مع عائلة

(*) اسم لعبة من ألعاب الكوتشينة

اولاجيبيل. تكلم خوسيه خوان عن رحلة سفر إلى نيويورك عليه أن يقوم بها لمسائل تخص العائلة، والذى يتعارض تمامًا مع القرب الشديد لموعد الزفاف. والآن هناك أمور كثيرة لا بد من ترتيبها. وما أن سمعت ماريا هذا الخبر حتى اجتاحها إحساس هائل بالسعادة، لأن فكرة فقط برقت فى ذهنها، "إنها ستتحرر من حضوره لعدة أيام". أحست أن هذا الطوق الذى بدأ يضيق عليها الخناق، انكسر فجأة. أخذت عدة كئوس من بونش البرتقال، وأخذت تضحك على اى شىء يحدث، عند توديعه منحته قبلة.

وفى اليوم التالى نهضت ماريا من نومها وهى تشعر بأنها سعيدة. وأنها تتحرك بخفة. وأثناء الإفطار لاحظت كلارا أن عينيها تلمعان، وأنها تبتسم بلا توقف. - إن لك شكل النسوة الشبعانة - هذا ما قالته لها. أدركت ماريا كل شىء فى هذه اللحظة، وافترضت سبب سعادتها بهذا الشكل. لقد كانت مرغوبة دائمًا. والآن لا شىء أكثر أهمية من هذا. إنها مثل الهيدرا(*) ملتفة بشجرة عملاقة، بريئة ومنقادة، منذ هذه اللحظة سيرتد النهار كمينًا هائلاً للصياد، رغبة لا تنتهى.

لكن خوسيه خوان أولاجيبيل لم يذهب إلى نيويورك، وعندما رأته ماريا وهو قادم فى الليل، استولى عليها الغضب كما لو أنه بظهوره أفقدها

---

(*) حية مائية سامة.

النطق تمامًا. لم تعر اهتمامًا بأى شىء كان يقترحه، عليها. كانت متوترة من شدة الغيظ، وهو لم يلحظ الكراهية التى بدت فى عينيها، وبينما كان خوسيه خوان يتكلم وهو يبتسم راضيًا، كانت هى المعشوقة دون أن تهتم بما يفكرون به أمها وخطيبها، جرت صاعدة السلالم إلى غرفتها، وهناك بكت من الغيظ ومن النفور، حتى وصل هو، فلم تعد تذكر شيئًا من كل هذا.

فى الليلة الأخيرة من السنة، أعدت السيدة كامينو عشاءً رائعًا، ومن حضروه فقط هم العائلات الأكثر قربًا، وعائلة أولاجيبيل. وبدت كلارا جميلة وسعيدة. كانا قد قررا هى وكارلوس إتمام زواج ثنائى يطوفان معًا فيه بأوروبا، والسيدة كامينو لم تستطع منع بعض من دموعها من السعادة، راضية من أن تكون هذه مقابل مثل هذا الكرم العظيم من أجل بنتيها الحبيبتين..." كانت ماريا شاحبة ومكتئبة. ترتدى ثوبًا أبيض من قماش البروكادو الإيطالى، محاطًا فى الخصر بحزام طويل كغلالة فضفاضة. وتقريبًا لم تنبس بكلمة طوال الليلة. وكلهم، ما عداها استمتعوا بالعشاء، لكن ماريا كانت تعرف جيدًا أين كانت سعادتها الوحيدة، وأن هذه الحفلة طويلة، ومنهكة. عقربا الساعة لم يتحركا. الزمن كان قد توقف...

والآن فالزمن أيضًا قد توقف... وكم هى شديدةٌ برودة هذه الغرفة، وكم هى مظلمة، بل وشديدة الظلمة حتى أن النهار يختلط بالليل، وبالفعل لم أعد

أعرف متى تبدأ الأيام، ولا متى تنتهى. أريد أن أنخرط فى البكاء من شدة البرد، فعظامى تصلبت وهى تؤلمنى. ودائمًا أنا معتلية للسرير الذى تنتشر عليه بقع البول، أتصيد الذباب، وأترقب الفئران التى تقع لا محالة بين يدى. والغرفة يملؤها الذباب الميت، والفئران التى أفسدتها الرطوبة، الفئران المتعفنة. لكننى لا أهتم. وعلى الآخرين دفنهم، أما أنا فليس لدى وقت... هذه القلعة شديدة الظلمة وباردة مثل كل قلعة، أنا أعرف أن عنده قلعة، كم هو ظريف أن أكون محبوسة فى قلعة، يا للظرف! دائمًا يكون فى الليل، فهو لا يسمح لأى أحد بأن يرانى... وبيتى موجود بعيدًا جدًا، وهناك كانت توجد مدفأة كبيرة جدًا فى مكتبة أبى وأنا رتبتها، ونفضت التراب عن الكتب، أنا أريد مدفأة لتدفئنى، لكنى لا أجرؤ على أن أقول له، فقد ملأنى بالخوف، وأنا لا أريده أن ينزعج منى، وأنا لم أتكلم كلمة واحدة مع أولئك الرجال الذين يأتون، يمكنه أن يأتى ويفاجئنى، فأضع نفسى فى الفراش، وأتغطى بالألحفة. نحن معًا دائمًا، أين هما ماما وكلارا؟ كلارا هى أختى الأكبر، وأنا لا أريدهما، أنا خائفة عليهما لأنهما لم تأتيا... ربما هما الآن ميتتان، وأعينهما تلمع كعينى خوسيه خوان فى تلك الليلة، أنا أريد أن أغمض له عينيه لأنهما تملئاننى بالخوف إذ تنظران إلىَّ...

عيناه مفتوحتان على اتساعهما وتلمعان... "ستكونين عروسًا جميلة وكلكِ أبيض فى أبيض".

القمر أيضًا أبيض. أبيض جدًا، وبارد جدًا، كما يكون دائمًا بالليل. هو يأتى فى أية ساعة، ودائمًا نكون معًا. ولو لم تكن البرودة شديدة، لكنت سعيدة تمامًا، لكنى بردانة بشدة، وعظامى تؤلمنى. البارحة انضربت بقسوة، وصرخت كثيرًا، كثيرًا... خوسيه خوان كان بردان بشدة، وأنا لم أتركه ليقع، لكن تركته ينزلق فى هدوء، والقمر تركه يسبح فى نوره، وعيناه كانتا تحدقان فىَّ. والفئران أيضًا ظلت عيونها تحدق فىَّ. بقى نائمًا فوق العشب، تحت القمر، كان شديد البياض... وأنا ظللت أنظر إليه لوقت طويل... أريد أن أطل من هذه النافذة، لأتمكن من رؤية الحجرات الأخرى... لكننى لم أطلها، هى عالية جدًا، وهو يستطيع أن يأتى ويفاجئنى، كما يحضر فى أية ساعة. مرات كثيرة أراد... يمكنه أن يعذبنى ويضربنى... هذه الأصوات العالية فى الركن، وهذا فأر آخر، سأمسك به قبل أن يأتى هو إلىَّ، لأنه عندما يأتى، فلا شىء أستطيع أن أفعله أنا...

# نهاية صراع

عندما كان يشترى الصحيفة المسائية؛ لمحه مارًا بصحبة امرأةٍ شقراء، لبث «دوران» متحيرًا، دون حراك. كان هو نفسه بما لا يقبل الشك. ليس شبيهًا ولا يبدو كذلك؛ كان هو الذى مرَّ، مرتديًا البدلة الكشمير الإنجليزى، والكرافتة المقلمة التى كانت زوجته قد أهدتها له فى عيد الميلاد. قالت له البائعة: "ها هى الفكة بقية حسابك"، وتناول منها النقود ووضعها فى جيب المحفظة دون أن يعدها تقريبًا. الرجل والشقراء كانا بالفعل قد صارا على الناصية. اندفع مسرعًا فى سيره وراءهما. لا بد أن يتكلم معهما. هو يعرف من كان الآخر، وأين يسكن. لكنه فى حاجة للتحقق من ذلك. وأى واحد منهما هو الحقيقى. لو هو «دوران» الحقيقى، صاحب الجسم والذى مرّ ظله المفعم بالحيوية، أم هو الآخر الحقيقى وهو ظله فقط.

كانا يتمشيان ذراعًا فى ذراع، ويبدوان سعيدين.

ولكن «دوران» لم يتمكن من اللحاق بهما. والشوارع فى تلك الساعة كانت مزدحمة بالناس فكانت النتيجة أنه وجد صعوبة فى التقدم فى سيره، وعندما دار حول إحدى النواصى لم تقع عيناه عليهما. ووصل التفكير به إلى أنهما قد ضاعا منه. وانتابه عندئذ إحساس بالكرب الشديد، يخالطه خوف وقلق حتى أنه من شدة ما عاناه ظل واقفًا متلفتًا فى كل اتجاه دون أن يعرف ما الذى عليه أن يفعله، ولا إلى أين يذهب، وافترض عندئذ أنه هو الذى ضاع، وليس الآخران. فى هذه اللحظة رآهما وهما يصعدان إلى عربة الترام. لحق بهما وفمه جاف، وتقريبًا يكاد لا يلتقط أنفاسه. وحاول فى هذا الزحام البشرى تحديد مكانهما، وكانا تقريبًا فى منتصف العربة، قرب باب الخروج، محاصرين مثله، وليس بإمكانهما التحرك، من مكانهما. لم يكن قادرًا على رؤية المرأة بشكل واضح، فعندما مرًّا به فى الشارع بدت له امرأة جميلة. شقراء جميلة، متأنقة فى ملبسها وهى متعلقة بذراعه. عليه أن يسرع لأنهما ينزلان من الترام، ومن الممكن أن يلحق بهما. هو يعرف أنه لن يطيق الصبر وقتًا أطول فى هذا الموقف. رآهما وهما يتجهان إلى باب الخروج، ورآهما وهما ينزلان. جاهد للحاق بهما، لكنه بعدما نجح فى الخروج من باب الترام، وجد أنهما قد اختفيا. وظل يبحث عنهما بلا جدوى. وخلال عدة ساعات، وفى شوارع متقاربة من بعضها

البعض؛ دخل المتاجر كلها، وتشمم أى أثر لأية أمارة تدل عليهما من خلال شبابيك البيوت. وتمهل للحظات طويلة على النواصى لكن لا أثر لهما، وبالتالى فلم يعثر عليهما.

أخذ ترام العودة بنفس مكسورة، وبداخله شعور بالخسة. ومع سوء الحظ هذا وجد أن عدم التأكد المعتاد كان قد ازداد إلى الحد الذى لا يعرف فيه بالفعل إذا ما كان رجلاً أم ظلاً. دخل أحد البارات. لكن ليس هذا المكان الذى اعتاد فيه أن يتناول كأسًا مع أصدقائه. إنه ليس سوى بار آخر حيث لا يعرفونه من فيه. ولم يحب أن يتكلم مع أحد. كان فى حاجة إلى أن يكون وحده، ويا لها من مصادفة. شرب عدة كئوس، لكنه لم يستطع أن ينسى المقابلة. زوجته تنتظره على العشاء مثلما يحدث دائمًا. لم يذق لقمة. الإحساس بالقلق والخواء وصلا إلى معدته هذه الليلة لن يقترب من امرأته، عندما تستلقى إلى جانبه. ولا فى الليالى المقبلة، فلن يفلح فى خداعها، وهو يحس بتأنيب الضمير كما لو كان يخدع نفسه، وربما فى هذه الساعة نفسها يكون هو يضاجع الجميلة الشقراء.

منذ ذلك المساء الذى رآه فيه وهو يتنزه مع شقراء، وجد «دوران» نفسه فى حالة سيئة بما يكفى. ارتكب أخطاء متكررة فى عمله بالبنك. وكان عصبيًا بشكل دائم، وسريع الغضب قضى وقتًا قصيرًا فى بيته

شاعرًا بأن ضميره يؤنبه، وأنه غير جدير بـ «فلورا».
لم يستطع التخلص من التفكير فى تلك المقابلة، وخلال أيام عديدة، كان يذهب إلى تلك الناصية التى رآهما عندها، وكان يقضى ساعات بأكملها ينتظرهما. كان فى حاجة إلى أن يعرف الحقيقة. هل له طبيعة متجسدة، أم هو مجرد ظل.

وفى يوم ظهرا مرة أخرى. كان يلبس تلك البدلة البنية التى لازمته لسنوات طويلة. لقد تأكد من أنها هى على الفور، فقد لبسها مرات عديدة. لقد استدعت له فجأة كثيرًا من الذكريات. تمشى قريبًا منهما بشكل كاف. كان جسمه هو نفسه، ولا مجال للشك فى ذلك. وقناع الابتسامة الغامضة، والشعر الذى يوشك على الشيب. موضة لبس الأحذية المرتفعة الكعب. والجيوب المزدحمة دائمًا بحاجيات، والصحيفة تحت إبطه... لقد كان هو. ركب الترام خلفهما. ونجح فى أن يشم ويميز رائحة عطرها... فهو يعرفه، عطر "سورتيليخى" دى لاجاليون... هذا العطر الذى دائمًا ما تستعمله ليليا، والذى أهداه هو لها فى يوم من الأيام بعد أن بذل جهدًا كبيرًا حتى يجده ويشتريه لها. و«ليليا» كانت قد لامته لأنه لم يقدم لها هدية أبدًا. كان قد أحبها منذ سنوات عديدة عندما كان تلميذًا فقيرًا وهو الذى كان ميتًا من الجوع ومن حبه لها. أما هى فقد كانت تعامله باستهانة لأنه لم يكن باستطاعته أن يقدم لها ما يشبع احتياجاتها مما تحب. وهى كانت تحب الحياة المترفة؛ والأماكن

الغالية، والهدايا. كانت تخرج مع رجال كثيرين، ولم يحدث أن خرجت معه أبدًا. كان قد وصل إلى محل بيع العطور وقلبه يملؤه خوف شديد بينما كان يعدّ النقود ليرى ما إذا كانت كافية. وقالت له الفتاة الواقفة على فاترينة بيع العطور المعروضة: "سورتيليخى عطر جميل بلا شك، ولابد أنه لخطيبتك". ولم تكن «ليليا» فى بيته عندما ذهب ليأتى لها بالعطر. وظل لساعات عديدة فى انتظارها. وعندما أعطاه لها؛ تناولت «ليليا» هديته لها بلا حماس، وبدون حتى أن تفتحها. أحس بخيبة أمل كبيرة، فهذا العطر كان كل، بل أكثر مما يستطيع أن يقدمه لها، أما بالنسبة لها فلم تكن له قيمة. كانت «ليليا» جميلة، لكنها باردة ومتجبرة، ولم يكن يستطيع إرضاءها... نزلا من الترام، فسار وراءهما «دوران» عن قرب. وكانت النتيجة أنه لم يلحق بهما فى الطريق. عبرا عدة شوارع وفى النهاية دخلا بيتًا مدهونًا باللون الرمادى. لا شك أنهما يقيمان هنا فى المنزل رقم ١٧٩. هنا يعيش مع «ليليا»، لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا، ولابد أن يتكلم معهما. الجميع يعرفونه، ولذلك عليه أن ينهى هذه الحياة المزدوجة. لا يجب أن يستمر فى الحياة مع زوجته ومع «ليليا» فى الوقت نفسه. لقد أحب «فلورا» بطريقة هادئة، وطاهرة. كان يحب حبًا يائسًا، بألم من كان خاضعًا ذليلاً لها فى الوقت نفسه. إنه فى حاجة إليهما هما الاثنان، يدللهما، ويعاشرهما فى الوقت نفسه. وفى

الحقيقة فإن واحدة منهما فقط هى التى تمتلكه، أما الأخرى، فتحيا مع الظل. ضرب جرس الباب. وأعاد ضربه... لابد أن يكون عنده الكثير من الصبر، وفكر بأنه بقدر ما سيصبر طويلاً عليها، بقدر ما سيفوز بها. كان ينتظر أمام بيتها. وكان يسعد برؤيتها، وبأنها كانت تدعه يصحبها فى بعض الأحيان إلى المكان الذاهبة إليه. وحينها كان يرجع إلى البنسيون مطمئنًا؛ لقد رآها، لقد تكلم معها... ضرب الجرس من جديد. سمع فى هذه المرة صراخ «ليليا». صرخت يائسة كما لو أنهما يتشاجران، وضربها هو نفسه، بقسوة ووحشية. لكنه لم يملك الشجاعة أبدًا لفعل ذلك، ومازال عندما يريد ضربها فى مرات كثيرة لا يفعل... كانت ليليا جميلة جدًا فى فستانها الساتان الأزرق، وهى تنظر له ببرود بينما تقول له: "أنا خارجة وذاهبة إلى المسرح مع صديقى، ولا يمكننى أن أستقبلك.". كان يحمل شهادة التخرج التى سلموها له فى هذا اليوم نفسه، وأحب أن تكون هى أول من يريها الشهادة، وكان ما يفكر فيه أنها ستكون سعيدة بنجاحه فى الامتحان بهذا التفوق الذى حققه. وكان قد قال لزملائه إن «ليليا» ستمضى بصحبته إلى حفلة رقص مثلما يحتفلان مع نهاية كل فصل دراسى. "انتظرى يا «ليليا»... لحظة واحدة، أن ما أريده فقط هو أن أخطبك...». كانت هناك عربة متوقفة أمام البيت، و«ليليا» لم تسمع بالفعل ما كان يقوله، فأمسك بذراعها محاولاً أن يستبقيها معه، فما يحتاجه فقط

هـو أن يوجه لهـا الدعـوة. انتـزعت نفسـهـا من قبضتـه التى تقبض عليها، وجرت إلى العربة التى كانت تقف فى انتظارها. ورآها وهى تجلس فى العربة قريبة جدًا من الرجل الذى كان قد جاء باحثًا عنها. رآها وهى تقبله، واستطاع أن يتأكد من سماعه لضحكتها، وأحس بأن دمه كله يفور صاعدًا إلى رأسه، وللمرة الأولى تولدت عنده رغبة فى أن يأخذها بين ذراعيه ويضمها إليه حتى يقضى عليها ويحيلها أشلاء، وتلك كانت المرة الأولى التى ظل يشرب فيها حتى فقد وعيه تمامًا. وعاد ليضرب الجرس، لكن أحدًا لم يرد... واستمر صراخ ليليا يصل إليه، وعندئذ شرع يخبط الباب بقبضته. ولا يمكنه أن يتركها تموت بين يديه، ولابد أن ينقذها... "الشىء الوحيد الذى أريده الآن هو أن تتركنى فى سلام، وألا أعود أبدًا لرؤيتك." هذا ما قالته له ليليا تلك الليلة؛ وهى المرة الأخيرة التى رآها فيها. وما كانت تنتظره منه فقط، أن يودعها، إذ أنها لا يمكن أن تستمر فى الحياة فى المكان نفسه الذى تعانى فيه، ويعانى هو، يومًا بعد يوم، صدودها وسخافاتها، وألوان الإذلال. لا بد من الانفصال، والابتعاد عن بعضهما البعض بشكل نهائى. نزلت ليليا من العربة وهى تغلق الباب خلفها بعنف. ونزل رجل وراءها ولحق بها، وأخذ يضربها، فجرت منه بمساعدته هو. وعندما انصرف صديق ليليا فى الأوتوموبيل؛ بكت «ليليا». احتواها بين ذراعيه بحنو، وهو يحميها؛ وعندئذ ابتعدت عنه بشكل فظ، وقالت

له إنها لا تريد أن تراه بعد ذلك. انتفض داخله بأكمله، وشعر بالندم على أنه أنقذها من الضربات ليظهر لها حنوه عليها، ولأن الآخر كان يمكن أن يقتلها، وكان لابد من إنقاذها من وحشيته. وفى اليوم التالى مشى من هذه المدينة وكان لابد أن يهرب من «ليليا»، ويتحرز للأبد من هذا الحب الذى يصغره ويذله. لم يكن من السهل عليه أن ينساها. كان يراها فى كل النساء... ويتمنى أن يصادفها فى عربات الترام، أو فى السينما، أو فى المقاهى، وفى بعض الأحيان كان يضبط نفسه متلبسًا وهو يتتبع امرأة فى الشارع لمدة طويلة ثم يكتشف أنها ليست ليليا. كان يسمع صوتها، ضحكتها، ويتذكر طريقتها فى الكلام، وطريقتها فى اللبس، وطريقتها فى المشى. جسمها البض ببرودة، والذى ما أقل المرات التى احتواه فيها بين ذراعيه، برائحة جسدها المختلطة بعطر "سورتيليخى" لقد كان الفقر مصدر ألم له، وكثيرًا ما فكر بأنه مع المال كان يمكن أن تحبه «ليليا». ومرت سنوات عديدة وهو يعيش على هذا التذكر لها. وفى يوم من الأيام ظهرت فلورا. ووجد نفسه مستسلمًا لها بدون حماس. وفكر بأن الطريقة الوحيدة التى عليه أن ينهى بها الأمور مع ليليا أن تكون له زوجة بجانبه. وتزوج بلا حب. وكانت فلورا طيبة، حنونة ومتفهمة. تحترمه، وتحفظ سره. لكن عالمه الآخر، كان يستيقظ أحيانًا فى الليل ويحس بأن «ليليا» هى التى ترقد بجانبه، فيتحسس جسد «فلورا» وشىء ما بداخله يمزقه. ويومًا ما لم يعد

«لليليا» وجود فى حياته. كان قد نسيها، وبدأ يتعود على فلورا، وعلى حبها. ومرت سنوات... بالكاد تسمع صرخات «ليليا» كانت بالغة الخفوت، خابية، كما لو... كسر الباب ودخل. كان البيت بكامله غارقًا فى الظلمات.

كان صراعًا طويلاً، وأصم، كان فظيعًا، ولمرات كثيرة، وفى سقوطه، تحسس الجسد الهامد لـ «ليليا». كانت ميتة قبل أن يمكنه الوصول. أحس بدمها ولم يزل فاترًا ولزجًا. وشعيرات من شعرها متشابكة، ملفوفة عدة مرات بين يديه. كان قد واصل هذا الصراع الغامض وكان لا بد أن يصل به إلى نهايته. حتى يبقى فقط «دوران» أو الآخر...

وفى حوالى منتصف الليل، خرج «دوران» من البيت المدهون باللون الرمادى، كان جريحًا، يترنح. كان ينظر فى كل اتجاه بتوجس، كما لو كان خائفًا أن يكتشف ويلقى القبض عليه.

## الطبق المفضل للسادة

ما أن أسمع المطر وهو يخبط زجاج النوافذ حتى يعاودنى سماع صرخاتها. تلك الصرخات التى تلتصق بجلدى كما لو أنها علقات. تعلو أصوات صرخاتها بقدر ما تتزايد درجة حرارة القدر، والماء يبدأ فى الغليان. وأرى عيونها أيضًا؛ خرزات صغيرة سوداء تخرج من محاجرها وطبخها يجرى.

هى تتكاثر فى فصل المطر بين الخضراوات فى الحدائق؛ مختبئة بين الأوراق، وملتصقة بين السيقان، وبين الحشائش المبتلة بماء المطر، ومن حيث تتكاثر تنتزع لبيعها، وبسعر غالٍ. فالثلاثة بخمسة سنتافو فى العادة. وعندما تتوفر بكثرة تباع الدستة بخمسة عشر سنتافو.

وهم فى بيتنا يشترون كل أسبوع باثنين بيسو، ليكون الطبق المفضل لأيام الأحد، ونضاعف عددها لو

كان هناك ضيوف مدعوون للوليمة، وبهذا الصنف من بين أطباق الطعام يحتفى بكرم بالغ بالضيوف من الطبقة الراقية أو من لهم تقدير كبير. "لن تستطيعوا تناول طعام أفضل من هذا فى أى مكان آخر" هذا ما اعتادت أمى أن تقوله لهم، وهى ممتلئة بالزهو، عندما يمتدحون طبقها.

أذكر كيف تجرى طقوس طبخها الكئيبة. والقدر التى كانوا يطبخونها فيها، جاهزة ومدعوكة بالملح بيد مدربة لطباخ فرنسى عجوز، والمغرفة الخشبية شديدة السواد من كثرة الاستعمال، والطباخة سمينة لا تعرف الرحمة ولا سبيل إلى قلبها أمام آلامها. تلك الصرخات التى تمزق القلب لا تهزها، فتواصل إيقاد النار فى الموقد، نافخة فى الجمرات المستعرة كما لو أن لا شىء يحدث.

من غرفتى فى العلّية كنت أسمعها تصرخ. بينما هى تمطر بشكل متواصل ليتواصل علو صرخاتها المتداخل مع علو صوت المطر.

إنها لا تموت على الفور، بل تظل تحتضر لوقت طويل فيبدو وكأنه لن ينتهى.

وقضيت هذا الوقت كله، حابسة نفسى فى غرفتى بمخدة فوق رأسى، إلا أنى ما أزال أسمعها كما كنت. وعندما استيقظت من النوم فى منتصف الليل، عدت أسمعها، ولم أعرف أبدًا إذا ما كانت لا تزال حيةً، أو أن صرخاتها هى التى بقيت تشب فى داخلى، فى

رأسى، فى أذنى، من خارجى وفى داخلى تواصل صرخاتها طرقاتها التى تمزق كيانى كله.

أحيانًا كنت أرى مئات العيون الصغيرة ملتصقة بزجاج النوافذ ومياه الأمطار تقطر منها، مئات العيون الصغيرة المستديرة السوداء اللامعة دامعة تنتحب، تطلب الرحمة، ولكن لا رحمة بهذا البيت لا أحد يهتز أمام هذه القسوة، فى الوقت الذى تطاردنى عيونها وصرخاتها ولا تزال تطاردنى فى كل مكان.

أذكر أنهم كانوا يرسلوننى، فى بعض الأحيان لشرائها، لكنى كنت أعود دائمًا بدونها، وأنا أؤكد لهم أننى لم أعثر على أى عدد منها. وفى يوم ما، راودهم الشك بى، وبعدها لم يرسلونى أبدًا. يومها الطباخة هى التى ذهبت وعادت بطشت ممتلئ. ورميتها بنظرة ملؤها الاحتقار؛ نفس النظرة التى يمكن أن يرمى بها الجلاد الأكثر قسوة، إلا أنها جعدت أنفها الأفطس بتعالٍ ورمتنى بشخرةٍ.

كان التحضير لطهيها عملية بالغة التعقيد، وتستغرق وقتًا طويلاً. ففى البداية تجمع فى صندوق مفروش بالحشيش الأخضر، ثم تُرمى لها أعشاب معينة نادرة فتقبل على أكلها بشراهة، ويبدو أن رمى هذه الأعشاب لها، كان يسبب لها الإسهال. وتقضى على هذا الحال فى صندوقها يومًا. وفى اليوم التالى يحممونها بحرص شديد حتى لا يخدشوها فيسببوا لها أذى. ثم ينتشلوها من الماء ويتركوها تجف ثم يلقوا

بها حيةً فى قدر مليئة بالماء البارد، ويضيفوا إليها الأعشاب ذات الروائح العطرية، والبهارات والخل والملح.

وعندما يبدأ الماء يسخّن تبدأ فى الصراخ، فى الصراخ، فى الصراخ، وتشتد فى صراخها كما يصرخ الأطفال المولودون فى التو، أو تصرخ الفئران التى ديست وسحقت، أو تصرخ الوطاويط، أو تصرخ القطط التى يجرى خنقها، أو تصرخ النساء اللاتى أحببن بهستيريا...

تلك كانت المرة الأخيرة، المرة الأخيرة لى، والتى كنت فيها ببيتنا، وكم كانت الوليمة مقدمة بكرم وببذخ، وكم كانت شهيتهم مفتوحة.

# مـوت فـى الغـابـة

مشى الرجل بخطى بطيئة وثقيلة، كما لو كان ينتزع قدميه من الأرض انتزاعًا. يداه فى جيبى البالطو الجبردين، وذراعاه متراخيان، تعبران عن خذلانه، وتشيان بالإجهاد والتبرم الدائم، بالسيجارة التى لا تفارق شفتيه أبدًا كما لو أنها صارت جزءًا منهما. كانت هناك لافتة فى البلكونة تعلن "شقة للإيجار". هز الرجل كتفيه عند قراءته للافتة، وواصل السير فى الطريق بالتبرم ذاته.

- بالفعل لم أعد أحتمل حياتى فى هذا القفص البائس أكثر من ذلك. لم يعد هناك مجال للكلام، ولم يعد بإمكانى التحرك فيه لأنه مزدحم على آخره. عليك أن تبحث عن شقة أخرى. هذا ما تردده زوجته أمامه كل يوم. ورد عليها:

- ما من ضرورة للصراخ حتى تقولى ذلك. الشقة مزدحمة على آخرها، هذا صحيح، لكن من الكراكيب التى تكومينها، والتى تجعلنى أفقد صبرى فى هذا البيت، تلك المزهريات التى تتراص فيها زهور وورود

صناعية من ورق الكروشيه معلقة وموضوعة فى كل ناحية حتى فى الحمَّام. والحيطان مغطاة كلها بنتائج الحائط وبها كلها مناظر شتوية. صور أولاد وبنات يبتسمون، وإلى جوارها صور للعائلة كلها، وحتى الأصدقاء كلهم، وأشكال ثم تصميمها وعملها من عيدان القمح المشقوقة والمتلاصقة والملونة: علب أدوات الخياطة، صناديق وأحقاق. أرانب وحمائم مصبوبة من الجبس. عرائس مشغولة من خيوط الصوف المغزول وقد بهتت ألوانها واتسخت وصارت مزيتة ومشبعة بالرطوبة. الفواكه التى تم صبها من الشمع والتى يغطيها الذباب.

ردت عليه غاضبة:

ـ أنت حتى لا تسمع كلامى لك.

ـ أنا أسمعك. لكن أنتِ تعرفين جيدًا أننى لا أملك وقتًا حتى أترك ما ورائى من أعباء، وأتفرغ للبحث عن شقة أخرى، ومكان آخر تقومين بإفساده، وتملئينه بالحاجيات الزائدة والكراكيب.

ـ طيب. أنا ذاهبة لأنام وحدى، ولا هذا أيضًا يهمنى، ولكن بما أننى التى أعانى فى هذا الحق المسمى شقة، فأنا مصرَّة أن أغيرها بنفسى حتى لو مت من الجوع.

وما التصرف الآخر الذى يستطيع هو أن يأتيه سوى أن يدفن نفسه فى مقبرة لفترة ويحاول أن ينام؟. وأحس بالرعب من أن يصل إلى ذلك البيت، وأن تقع

عيناه على هذه المرأة التى صارت سمينة، ومتسخة ومهوشة الشعر، رائحتها رائحة بصل طوال الوقت، وفردتا جوربها مقطوعان ومتهدلان. الخروج بشكل نهائى. كان ينظر إليها أحيانًا وهو يشعر بالألم من أجلها، يشعر تجاهها بحنان حقيقى؛ كما لو كان يتأمل قبر من أحبها.

ـ أصبرى لعدة شهور فقط، وسيكون عندى أسبوع بكامله، وسأكون حرًا فيه، وعندئذ سأبحث عن شىء أفضل.

ـ وخلال هذه المدة أكون أنا قد تحولت إلى امرأة مجنونة. وفعلاً لن أحتمل الأطفال وهم يتفاقزون فوق الأسِرّة ويكسرون كل الأشياء، لأنهم ليس عندهم مكان يلعبون فيه (لقد عملت كل شىء لإفساد الأطفال بتدليلها لهم، والآن تشكو) وأنا مُصِرّة على أن تبحث لنا عن شقة حالاً.

ـ أنتِ لا تقدِّرين أننى فى غاية التعب، وأشعر بأن صحتى سيئة.

ـ هذا نتيجة الإفراط فى شرب القهوة والإفراط فى التدخين، والإفراط فى الشراب.

ـ أنا مرهق جدًا. وأحيانًا أفكر وأنا أستيقظ من النوم أننى لن أستطيع بالفعل أن أواصل أكثر من ذلك، وكل ما أتمكن من عمله يكلفنى جهدًا كبيرًا.

ـ طبعًا! فما أقل ما تستريح، وتعمل بلا توقف، وتشرب قهوة طوال اليوم... وبهذه النقود التى تضيعها

على المقاهى، وعلى السجائر، وعلى الشراب، كان بإمكاننا أن نعيش بشكل أفضل قليلاً.

- لو لم أشرب كثيرًا من فناجين القهوة، ولو لم أكن أدخن، ولو لم آخذ كأس، لم يكن بإمكانى أن أحرك إصبعًا واحدًا، وأنتِ لا تريدين أن ترى كيف أننى مستنزف تمامًا.

- ولذلك، فعليك أن ترى من أين تستمد القوة، وتوفر وقتًا ولو قليلاً لتبحث عن شقة...

وهناك، كانت تلك الفتاة الهيفاء ببلوزتها الأنيقة دائمًا، وجيبتها على الطراز الأندلسى، التى يمسى فى انتظارها كل مساء عند مدخل المبنى وقت خروجها. يتمشيان معًا فى الشوارع ممسكين كل منهما بيد الآخر. يتوقفان أمام فاترينات العرض للمحلات الكبيرة، ليشيرا إلى أشياء لن يتمكنا أبدًا من شرائها... ويتناولان القهوة فى المحلات الصينية خلال أحاديثهما عن مشاريعهما وكل منهما ينظر إلى الآخر. ويحسبان كل يوم النقود التى لابد أن يوفراها كى يتزوجا...

تنهد الرجل بحزن ثم توقف، أدار رأسه فأدرك أنه مازال بوسعه رؤية الإعلان الذى مازال معلقًا فى مكانه بمجموعة العمارات وراءه. رجع حتى العمارة. ألقى نظرة على لوحة زرار الأجراس وضغط على زر جرس البوابة. وضغط، ثم عاد يضغط مرة أخرى لمدة أطول، ولكن أحدًا لم يرد. لا أحد موجود بالدور

الأرضى. صعد سلمًا مظلمًا، وبالكاد جرؤ على أن يضغط على جرس إحدى الشقق. وخلال لحظة تقريبًا ظهرت بالباب فتاة بمكياج صارخ، إلا أنها غير مهتمة بهندامها، ومتسخة:

ـ ما الذى يمكننى أن أقدمه لك؟

وقال لها وهو متهيب:

ـ أريد فقط بيانات عن الشقة الخالية، لأننى لم أجد من يرد علىَّ عند البوابة.

ـ هذه العجوز لا تهتم بشغلها، ولا تنتبه لشىء، ولا أعرف لماذا لا يتخلصون منها. لكن بُصّ حضرتك، الشقة الخالية موجودة فى الدور الخامس، لكن المفاتيح موجودة عند المرأة العجوز، وهى فوق السطوح. هناك يمكن أن تجدها.

ـ شكرًا جزيلاً يا آنسة.

وأخذ يصعد السلم ببطء أكثر من البطء الذى كان يمشى به فى الشارع. يصعد درجة، ثم درجة ثانية... ويتوقف قليلاً، ثم يأخذ نفسًا عميقًا. ورمى بعقب السيجار الذى كان قد أنهاه، وأشعل سيجارًا آخر، واستمر يصعد، يصعد... وزعق صوت امرأة:

ـ من ينادى على البوابة؟

ونظر هو إلى أعلى حيث يأتى الصوت:

ـ أنا الذى ناديت. أريد أن أرى الشقة الخالية.

ـ أنا سأذهب لإحضار المفاتيح. انتظرنى عندك، وسأنزل لك حالاً.

وانتظر الرجل صابرًا حتى نزلت المرأة بالمفاتيح وفتحت باب الشقة، لم يكن هناك شىء عظيم، لكن الشقة كانت واسعة، ويضيئها نور النهار الذى يدخلها بشكل كاف. حسنة الموقع ناحية الشرق ولابد أنها ستكون دافئة فى الشتاء... وهناك غرفة نوم للأطفال، وأخرى لهما، وحمام مجهز بما يكفى من التركيبات والديكور. وسأل البوابة:

ـ كم إيجار الشقة؟

ـ أنا لا أعرف يا سيدى، لكن لو حضرتك فى حاجة للشقة، أستطيع إعطاءك تليفون صاحب العمارة حتى ترتبا المسألة.

ـ نعم أنا فى حاجة إلى الشقة، ما نمرة التليفون؟

ـ أنا غير قادرة على تذكرها، لكنها هناك فوق، فى غرفتى. أنا سجلتها عندى، ولو طلعت يمكنك أن تأخذها.

ـ سأطلع مع حضرتكِ.

وصعد وراءها، وما أن وصلا إلى السطوح حتى قالت المرأة له وهى تدخل الغرفة:

ـ حالاً سأعطيها لك.

فتحت أدراج منضدة مخلعة، وبدأت تخرج من الدرج، أغطية زجاجية، شمعة، أربطة من الصوف

لضفائر الشعر، كعكة شعر مما توضع فى مؤخرة رأس المرأة، وهى مجعدة ولا لون لها. قطعة من مرآة. علب فارغة. صندوق به حمالة للقوارير أو الزجاجات. بعض المناظير، سدادات فلين. مقصات مكسورة. والرجل ظل واقفًا فى الخارج، يتميز غيظًا على باب الغرفة، ومن مكانه يتطلع إلى المرأة التى أعادت الدرج دون أن تجد شيئًا وفى كل مرة كانت تخرج أشياء أكثر حيث إن ما تريده هو الشىء نفسه. وفكر وهو يتابعها بنظراته: تخزين النفايات، تكديس أشياء لا نفع منها ربما تحتاجها فى يوم من الأيام، تجميع الأشياء، وأشياء أكثر لا أمل فيها، حتى أنها يمكن أن تموت فى يوم من الأيام مختنقةً بها. فى بيته يتملكه الإحساس دائمًا بأنه فى يوم ما، سوف تدب الحياة فى هذا العالم من الأشياء والكراكيب، وسوف تجثم فوقه. وأحس بالضيق، فكف عن النظر إلى المرأة وهى تواصل إخراج الأشياء... تطلع إلى أعلى. وكانت هناك سحابات بيضاء، سيكون شيئًا جميلاً أن يمسك بقبضة منها، فهى تبدو قريبة جدًا. وقالت المرأة وهى تخرج ثم تعود لتضع فى درج المنضدة أشياء ومزيدًا منها:

- أنا لا أعرف ماذا فعلت بهذه الورقة الصغيرة التى سجلت فيها نمرة التليفون، أنا متأكدة من أنها محفوظة هنا.

مر سرب من الطيور. تابعهم ببصره ورآهم وهم يصلون إلى هدفهم: الغابة.

لقد عادوا للمبيت داخل الأشجار. أحس لحظتها بأنه يحن إلى الأشجار. وتمنى أن تكون شجرة...

"وجدتها الآن... وجدتها الآن" ـ هذا ما رددته المرأة .... أعيش فى الغابة وأمد جذورى دائمًا فى المكان نفسه، دون أن يكون عليَّ الذهاب من مكان إلى آخر، دون أن أتحرك مزيدًا من الحركة، وهنا على الدوام أستطيع أن أتطلع إلى السحب والنجوم وهى تنطفئ ثم وهى تعود لتومض، والمرأة تظل تبحث، وتبحث... فى الليل وفى النهار، ليلة أخرى، ونهار آخر، المرأة تبحث، تبحث يائسة عن نمرة التليفون، وهو فى الغابة دون أن يهمه شىء، دون أن يسمع بالفعل صوت خشخشة الأوراق، والأدراج، والأشياء. استراح من ذلك التعب، من حياته كلها. من عربات الترام، وازدحامها بالناس، ومن الضجيج، ومن السرعة، ومن الساعات. من زوجته، من السكن، من الحياة الفظيعة، والأطفال. ودون أن يسمع خبط ماكينات الكتابة، ولا مطابع الصحيفة، ولا ماكينات لطبع اللينوتيب، ولا رنين العشرة تليفونات فى وقت واحد... لابد من السكون والعزلة للتفكير، وربما للتذكر، لكى يتمكن فى لحظة ما من أن يحيا بعمق، ولكى يسمع من جديد كلمة، كلمة واحدة.... هنا حفظت تلك الورقة الصغيرة، أنا ذاكرتى قوية جدًا، فأنا حفظتها هنا ـ ووجد نفسه فجأة وقد أحاطت به أشجار ساكنة، وقائمة وهى ترتفع، على جذور عميقة، يتطلع إلى النجوم والسحب، النسيم يهز برقة فروعها والطيور تنزل ضيوفًا بين

أوراقها... حياة هادئة تتميز بالخفة، وتأتى خفتها من الأشجار المليئة بالطيور والتغريد! ـ لكن لو أننى بقيت هنا فى مكانى، فسأحيا فى طمأنينة .... من أول النهار إلى أن يحل الليل، ومئات من الطيور المغردة فى أذنيه، وقبل أن تحدق عيناه فى الداخل وفى الخارج، يصاحبه كورس غناء خالد... ودائمًا الكورس نفسه، وهو دون أن يكون باستطاعته سماعه الآن، ولا حتى تفكيره فيه، ما عدا الغناء الفرح للطيور. يتألم من نقراتها فى عنقه، وفى ذراعيه، وفى عينيه، وهو لكونه رحيمًا، يتألم من ذلك دون أن يحرك ولو إصبع واحد ليطردهم... وعليه أن يقاسى من الريح العاصفة التى تقتلع الأفرع وتنتزع الأوراق، ليبقى عاريًا لأشهر طويلة، لا يتحرك تحت هبوب عواصف الثلوج المتواصلة، دون أن يرى الشمس ولا النجوم... ويموت من شدة الكرب حين يسمع فئوس قاطعى الأشجار وهى تقترب فى كل مرة أكثر فأكثر... يحس بجسده مقطعًا والدم ينزف منه بغزارة... والعشاق ينقشون بالحفر قلوبهم والحروف الأولى من أسمائهم على صدره، وينتهى فى مدخنة وقد تحول إلى رماد.. الآن أتذكر أين حفظت الورقة الصغيرة .... ورأى يومًا مر فيه على أبنائه وزوجته دون أن يستطيع أن يصرخ مناديًا لهم ـ إنه أنا، لا تمشوا ـ وهم لم يتوقفوا تحت ظله. ولا حتى نظروا إليه. ولا شىء مسهم من انفعاله، ولا فرحة بهم.. لقد بدأت الريح تهب، انظر كيف تهتز

أوراق هذه الشجرة ـ قال الأطفال ذلك دون أن يتعرفوا عليه، بينما تسمر هو فى الأرض، وقد أصابه خرس دائم وإلى الأبد... وممتلئًا بالطيور ودًّ لو...

ـ هى عندى بالفعل، هى عندى بالفعل، النمرة موجودة هنا بالفعل! ـ قالت المرأة ذلك وهى تصرخ بأعلى صوت. وعندما سمع صرخاتها انتفض الرجل فجأة كما لو كان قد سقط مع الحلم فى بئر بلا قاع. نظر إلى المرأة التى مدت له يدها بالورقة فى استغراب، كما لو أنه لم يرها أبدًا من قبل، وفجأة استدار وبدأ يهبط السلم بخطوات متسارعة ـ هذه هى النمرة يا سيدى، لقد وجدتها بالفعل ـ هكذا صاحت المرأة عليه وهى فى حيرة شديدة، لكن الرجل لم يسمعها، وبالفعل لم يهتم بأن يسمعها، وواصل هبوطه السلم كما لو كانوا يطاردونه كشيطان برسم الصليب.

ـ يا سيد، يا سيد، انتظر، فها هى النمرة معى ـ هذا ما ظلت تكرره المرأة البدينة بينما كانت تنزل السلم وراء الرجل. وربما كانت السرعة هى التى أوقعت قبعة الرجل من فوق رأسه إلا أنه واصل النزول دون أن يتوقف ليستردها حتى وصل إلى بوابة الخروج...

ـ قبعتك يا سيدى، لقد وقعت منك القبعة ـ صرخت المرأة فى لحظتها، ثم أمسكت بالقبعة وخرجت بها إلى

الشارع. ولمحت الرجل الذى أخذ يجرى قدمًا.... قبعتك يا سيدى... سـ يـ يـ د د د ى... يا سـ يـ يـ د د د ى... ومازالت تجرى حتى اجتازت عدة عمارات فى محاولتها أن تعطيه القبعة. وبينما كانت تلهث وقد نال منها التعب بشدة، كفت عن إحساسها بالواجب تجاهه، وبقيت تتابعه بنظرها وهو يجرى مبتعدًا فى الطريق، حتى اختفى، وضاع فى الغابة.

# الآنسة خوليا

الآنسة خوليا، كما يناديها زملاؤها فى العمل بالمكتب، تحملت أكثر من شهر دون نوم، بالشكل الذى بدأ يترك آثاره عليها. فالوجنتان فقدتا تلك الدرجة من لونهما الوردى، والذى حافظت عليه خوليا بالرغم من سنوات عمرها، مثلما كانت نتيجة لحياة صحية، مرتبة، قضتها فى هدوء... وهالتان كبيرتان أحاطتها بعينيها، ويمكن ملاحظة أن فستانها تهدل عليها، ولاحظ زملاؤها بكثير من القلق أن ذاكرة الآنسة خوليا لم تعد كما كانت من قبل، فهى تنسى الأشياء، وتعانى من حالات شرود متكررة. وأكثر ما كان يشغلهم، كان أن يروها جالسة أمام مكتبها دائخة ورأسها يسقط على صدرها ويرتفع فجأة إلى الحد الذى هو أقرب لبقائها نائمة، وهى التى كانت دائمة النشاط والانتعاش، وكانت تتميز فى عملها حتى ذلك الحين بالكفاءة، والثناء والتقدير. وبدأت تتناثر فى

المكتب التخمينات حولها نتيجة هذا التغير الذى لا يمكن تفسيره. فالآنسة خوليا كانت واحدة من الآنسات التى تقوم بإدارة العمل بشكل لا غبار عليه، وكلهم يعرفون ذلك. وسلوكها فى حياتها يمكن أن يؤخذ كمثال للاعتدال والاستقامة. ومنذ أن تزوجت أختاها الأصغر منها؛ عاشت خوليا وحدها فى البيت الذى تركه الأبوان لهما عند موتهما. وكان عليها أن ترتبه بذوق عالٍ وتهتم بنظافته باستمرار، ونتيجة لذلك، فقد كان بيتًا محببًا لمن يدخله بالرغم من أنه كان بيتًا قديمًا. وكل شىء هناك كان يعامل باهتمام ولطف، وكل تفصيلة مهما صغرت كانت تنم عن روح خوليا التى تعشق الموسيقى، وقراءة الكتب ذات القيمة الأدبية العالية: شعر شيلى، وكيتس، سوناتات برتغالية، روايات الشقيقتين برونتى. وهى تعد بنفسها وجبات الطعام وتقوم بنظافة البيت وهى سعيدة بذلك تمامًا، ودائمًا ترى وهى ترتدى ملابس محتشمة، ووقورة فى بساطتها وذوقها الخاص بها الذى يجعلها بالضرورة جميلة، ولا تزال محتفظة بلون بشرتها الغض النضر، وتلك النظرة الهادئة العذبة التى تمنحها مسحة من الطيبة والوداعة.

إلا أنها، ومنذ فترة، قد خاطرت بتعريض نفسها للقيل والقال مع السيد دى لونا، مراجع حسابات المؤسسة، والذى يصحبها كل يوم بعد الظهر، من المكتب وحتى بيتها. وفى بعض الأحيان يبقى ليأخذ معها القهوة بينما يستمعان إلى الموسيقى، وفى الوقت

نفسه تكون الآنسة خوليا تشتغل فى سويتر لواحد من أبناء أختيها. وعندما تكون هناك حفلة لفرقة موسيقية متميزة؛ يحضرانها معًا. وكل أيام الأحد يذهبان معًا لحضور القداس، وبعد الخروج من الكنيسة يمضيان لتناول الآيس كريم أو للنزهة فى الغابة. وبعد أن تتناول خوليا الغداء مع أختيها وأبنائهما، يقضيان وقت العصر فى لعب الكوتشينة الأورجوانية ثم يشربون الشاى، وعندما يحل الظلام، تعود خوليا إلى بيتها فى غاية الرضا بينما تلقى نظرة على ثوبها مفتونة بقطيفته.

لكن ها هو شهر مضى وأكثر، لم تنم فيه خوليا، وذات ليلة أيقظها من النوم فجأة تصاعد جلبة غريبة كما لو أنها صادرة عن احتكاك أقدام صغيرة وهى تجرى فى حركة جريئة نشيطة. أضاءت النور وبحثت عنها فى البيت كله، لكنها لم تعثر على شىء. وحاولت أن تعود للنوم، فلم تستطع مواصلته. وفى الليلة التالية حدث الشىء نفسه، وهكذا، يومًا بعد يوم؛ ما تكاد تدخل فى نومها حتى توقظها الجلبة. لم تتحمل المسكينة خوليا أكثر من ذلك. وباتت كل يوم تفتش البيت من فوق لتحت دون أن تعثر على أى أثر. وكان ما يقلقها أن الشقق بالبيت قديمة، بما فيه الكفاية، وفكرت أنها ربما تكون ممتلئة بالفئران، وتكون هى التى توقظها ليلة بعد ليلة. ولذلك اتفقت مع رجل على سد مداخل الجحور كلها التى فى البيت. وليس قبل أن تضع فيها سم الفئران. وكان عليها أن تدفع مقابل

هذا العمل ستين بيسو، والذى بدا لها مبلغًا أكثر من اللازم.

فى هذه الليلة، استلقت فى فراشها راضية مطمئنة وهى تظن أنها قد وضعت بالفعل نهاية لهذا العذاب. ولقد فرض عليها الضيق أن تلتزم بهذه التكلفة، ولكنها كررت لنفسها أكثر من مرة، أنها لم يكن باستطاعتها أن تواصل السهر ولو ليوم واحد أكثر من ذلك، ونامت وهى مطمئنة. وعندما أيقظها صخب الجلبة المعروفة لها، يبدو من السهل تصور خيبة أمل الآنسة خوليا. وكالعادة، فتشت البيت مرة أخرى، ولم تصل لأية نتيجة. وكان التعب قد نال منها، فألقت بنفسها يائسة على مقعد قديم، وانفجرت باكية. وعندما طلع عليها النهار كانت فى مكانها على المقعد.

وفى الحادية عشرة صباحًا لم تستطع خوليا مقاومة النعاس وأحست بعينيها مقفلتين، والجسم متراخ وثقيل. ذهبت إلى الحمَّام ورشت وجهها بالماء، وعندئذ سمعت فتاتين وهما تتحدثان فى الممر بجوار السلم:

- هل دققت النظر فى وجهها اليوم؟

- نعم. إنها فى حالة سيئة جدًا

- لا أعرف كيف أمكنها الحضور إلى العمل وهى بهذه الحالة، فحتى الطفل، يمكنه أن يلاحظ ويشك.

- إذًا أنتِ أيضًا تظنين؟

- لم أكن أتصور أبدًا أن الآنسة خوليا...

- هذا ما يشجعنى على القول بأن عليها أن تزور قديسة من القديسات.

- بالنسبة لى، فإن ما يؤلمنى جدًا، هو أن أراها، المسكينة بالفعل، وهى غير متمالكة نفسها حتى مع روحها.

- واضح طبعًا، وبالذات فى سنها...

أحست خوليا بأن دمها كله يندفع صاعدًا إلى رأسها، وبدأت يداها ترتعشان، وساقاها تتراخيان، وكان من الصعب عليها أن تستوعب هذه الفضيحة. نظراتها غامت، واحتجبت الرؤية، وبعدها انحدرت الدموع فوق وجنتيها الملتهبتين.

اشترت الآنسة خوليا مصائد للفئران، وجبنًا، وسُمًا. ولم تسمح لكارلوس دى لونا أن يصحبها للبيت لأنه سيكون من المحزن جدًا لها أن يعرف أن بيتها امتلأ فجأة بالفئران. ومن المحتمل أن يتسلل إلى تفكير السيد دى لونا أنها ليست نظيفة بما يكفى، وأنها مهملة فى ملابسها وتحيا وسط حيوانات قارضة. وضعت مصيدة فى كل غرفة من الغرف، ووجبة للفئران من الجبن المسموم، لأنها فكرت بأن الفئران لو نجحت فى الإفلات من المصيدة، فستموت حتمًا من الجبن المسموم، ولكى تحقق أضمن النتائج وتتفادى أى خطأ فيما تحاوله؛ وضعت إناءً صغيرًا، به ماء مسموم أيضًا، إذ لو أن الفئران أفلتت من المصيدة

ولم تحب أن تأكل من الجبن المسموم، فإنها لابد ستحس بالعطش، بعد ذلك اللعب المنفلت الزمام طوال الليل.

وسمعت جلبتها، وجريها السريع المرح، وارتطاماتها، ووثباتها، وسقطاتها... تلك الفئران مغرمة كثيرًا بأن تتسلى، لكنها على أية حال ستكون الحفلة الأخيرة لها!

لقد رفع هذا التفكير معنوياتها، وجعلها ترى فيه خلاصها. ولما توقفت الجلبة، وكان ذلك وقت الفجر نهضت خوليا مشتاقة لأن ترى كم فأرًا منهم وقعوا فى المصائد. لكنها لم تعثر على فأر واحد. فالمصائد كانت خالية، والجبن لم يمس. الأمل الوحيد الذى بقى لها، أن تكون الفئران، على الأقل، قد شربت من الماء المسموم.

واستمرت خوليا المسكينة فى وضع سم جديد كل يوم. وكان عليها أن تشتريه من أماكن مختلفة بحيث لا يعرفونها، إذ أنهم، فى الأماكن التى ذهبت إليها مرات عديدة، بدءوا ينظرون إليها نظرات تشى بأنهم يستريبون فيها، كما لو أنهم بدءوا يشكون فى أن شيئًا رهيبًا لابد... وبات موقفها باعثًا على اليأس، وبدأت جهودها تتناقص يومًا عن يوم بشكل واضح، وقد فقدت روحها المرحة المعتادة، والسكينة التى تتمتع بها دائمًا. وبدأ مظهرها وقد بات مما يؤسف له، وحالتها العصبية لا يمكن الصبر عليها وقد فقدت تمامًا

رغبتها واستمتاعها بالقراءة أو الاستماع للموسيقى. وبالرغم من أنها حاولت إلا أنها لم تستطع أن تجد شيئًا قادرًا على إثارة اهتمامها. والشىء الوحيد الذى استطاعت أن تقرأه، وتدرسه بلا أمل، كان بعض الكتب القديمة فى علم الصيدلة، والتى كانت تخص والدها. وفكرت أن خلاصها الوحيد يكمن فى أن تكتشف هى بنفسها نوعًا من السم الأكثر فعالية، والذى يجدى مع هذه الكائنات الشيطانية، طالما أنه لم يجد معهم أى سم آخر.

وصارت الآنسة خوليا، أثناء عملها فى المكتب، تسقط رغمًا عنها فى النوم. وشخص ما ربَّت على كتفها برقة فاستيقظت مفزوعة على الفور.

- الرئيس يطلبك يا آنسة خوليا.

دعكت خوليا عينيها وهى شديدة الضيق، فوضعت بودرة خفيفة على وجهها فى محاولة منها لإخفاء آثار النوم، وتوجهت، بعد ذلك إلى مكتب السيد ليموس، وبصعوبة طرقت الباب. جلست على حافة قاعدة الكرسى وهى متوترة بينما تتظاهر بالتماسك والكبرياء. بدأ السيد ليموس يتكلم عن أنه كان دائمًا راضيًا عنها وعن عملها الذى يتميز بالكفاءة، ويبعث على الثقة، لكن، ومنذ فترة تغيرت الأمور، وبات شديد القلق عليها... وما فكر فيه جعله يقرر أن يتكلم معها... وأكد لها أنه، من ناحيته لم يعر الشائعات المختلفة أى اهتمام (فى هذا الجزء الأخير من كلامه

خفض بصره). احمر وجه خوليا تمامًا وتشبثت بقوة بمسند الكرسى حتى لا تقع من فوقه، وأخذ قلبها يدق وتشتد ضرباته بصوت مكتوم.

لم تعرف كيف أفاقت من حالة فقدان الوعى، ولا إن كانت قد نجحت فى أن تقول شيئًا دفاعًا عن نفسها وعندما وصلت إلى مكتبها أحست بالنظرات تحاصرها من كل من بالمكتب، ولحسن الحظ، فالسيد دى لونا لم يكن موجودًا فى هذه اللحظة، ولم تكن خوليا قادرة على تحمل مثل هذا الإذلال.

قدرت أختاها بسرعة أن شيئًا بالغ الخطورة قد حدث لخوليا. وفى أول الأمر أكدت لهما أن ليس لديها ما تقوله لهما، لكن بالوضع الذى صارت فيه الأمور أسوأ، فقدت خوليا الرغبة التى لابد من توفرها حتى تعترف لهما بمأساتها. وحاولتا بلا جدوى أن تساعدها وتعملا على تهدئتها فى كل الأحوال وإلى جانب زوجيهما، عادوا لإلقاء نظرة على البيت؛ ففتشوه عدة مرات دون أن يعثروا على شىء مما تركهم فى حيرة شديدة، ومن يومها زادا من انتباههم واهتمامهم بالأخت المسكينة وبعدها بقليل فكرتا وقررتا أن خوليا تحتاج إلى قدر كبير من الراحة، ولذلك فعليها أن تطلب، وقبل ذلك بوقت كاف، الإذن لها بإجازة من العمل. وذلك كان أيضًا تقدير خوليا لأنها مرهقة جدًا وما ينقصها هو أن تسترد صحتها. لكنها رأت، وكم آلمها ذلك، أن أختيها

تشكان أيضًا فى السبب الوحيد والحقيقى الذى تحتفظ به لنفسها فى هذا الموقف. فهى تحس بأنها مراقبة منهما حتى فى بعض التفاصيل التى لا تعنى شيئًا يذكر، ولا الكلام فى المكتب حيث انتقلت إدارتها إلى زملاء لها، إلى التفكير فى أسباب مهنية ومخجلة، عدم الفهم، والانحطاط، والذى هو قدر الغالبية من الناس، حطمها وجعلها نهبًا للاكتئاب بشكل كامل. وكانت تتذكر باستمرار ذلك الحديث الذى كان من حظها أن سمعته، وما أدعاه عليها السيد ليموس، وعندئذ تنحدر الدموع على وجنتيها ونهنهات بكائها تعلو حتى حلقها.

كانت الآنسة خوليا تحب عملها، بالرغم من سلسلة الإهانات، والافتراءات التى مرت عليها فى الأوقات الأخيرة وقد جعلتها تقاسى. ففى هذا المكتب الذى قضت فيه خمسة عشر عامًا، كانت تفكر دائمًا بأنها ستشتغل فيه حتى اليوم الأخير الذى تستطيع القيام بعملها فيه. وكانت تعتبر أن العمل بالنسبة لها، يوفر لها على الأقل مكانة اجتماعية مثل أختيها. وفكرت بأنها كانت متجهمة فى عملها وهى تتحرك فى مشقة وبذلت الجهد فوق الجهد. وأن ذلك لم يمكنها من أن تحقق وضعًا متقدمًا كانت قد حققته من قبل. وبعد أن أمعنت التفكير طويلاً انتهت إلى أنها لابد أن تسعى للعلاج، فتطلب السماح لها بإجازة كما تريد الأختان، وأن تحاول استعادة قواها وحيويتها.

علاقة خوليا بالسيد دى لونا انتابها البرود شيئًا فشيئًا، وليس ذلك لأنها لا تهمها؛ بل لأنها بدأت تعانى من ذلك الوضع الذى أربكها، فبدأت تتهرب من رؤيته كل يوم كما كانت تفعل حتى ذلك الحين. وخوفًا من أن يشك فى شىء، مرت بتجربة قاسية لخجلها من أن يكتشف السبب فى مأساتها، من تخيله فقط، وهو يحس بيديها تعرقان، وحرجها من جعله يتقيأ. وبعد ذلك لم يعد هناك بالفعل هذا الخوف فقط، بل لأن خوليا لم يعد وقتها يتسع لشىء آخر، إلا لإعداد السموم. وبشكل غير متوقع؛ عثرت على أدوات معمل صغير يستخدم فى تحضير وتركيب بعض الأدوية، وقد عثرت عليه فى أحد الصناديق التى لا شك فى أن والدها قد احتفظ بها كتذكار من سنوات عمله بالصيدلة. إذ أنه، وقبل سنوات من موته، باع الصيدلية، وكرس بقية عمره فقط لتقديم بعض الأدوية لعديد من المرضى.

وفى هذا المعمل قضت خوليا كل الأوقات القصيرة التى كانت غير مشغولة فيها، وعدة ساعات من الليل، تخلط فيها مستحضرات من مواد غريبة، والتى كانت تنبعث منها فى مرات عديدة روائح لا يمكن تحملها، أو غازات تلهب العينين، أو تسبب هياجًا للزور، ونوبات من السعال تجعلها تدمع بغزارة. وهكذا سارت الأمور، فخوليا، بالفعل، ليس لديها الوقت ولا السكينة التى تتيح لها الجلوس للاستماع إلى الموسيقى مع السيد دى لونا، فكانا لا يريان بعضهما البعض، فى أفضل

الأحوال إلا مرة واحدة فى الأسبوع، وأيام الأحد التى يذهبان فيها معًا لحضور القداس. ومع ذلك، فإن خوليا كانت تحس بأن هذه المحبة، حتى فى هذه الحدود، قوية وراسخة، ولا شىء يمكن أن يزعزعها، أو يؤخذ عليها. "إنه إحساس رقيق وهادئ مثل سوناتا لباخ، وتوافق روحى متصل وعميق، منعم بالطهارة والفرح". هكذا أوضحت خوليا حدود ما بينهما.

والسيد دى لونا، أيضًا، فكر مثل خوليا، "محترمًا نبل ما بينهما، وأن ما ربطهما هى علاقة بالغة الندرة، ويصعب أن تجدها فى عالم مجنون ضارب فيه الفساد، فى هذا الانفلات حيث لا أحد الآن لديه وقت ليفكر فى روحه، ولا فى خلاصه، وحيث إن أماكن العبادة للمسيحى تقل أكثر فأكثر..." وعلى أية حال، فهو يحمد الله على هذه الهبة الطيبة التى منحت له، والتى ربما لا يستحقها.

ولكن كارلوس دى لونا كان رجلاً شديد التقوى والطيبة. فهو ابن أو أخ مثالى، محاسب شريف وكفء من الدرجة الأولى. وينتمى باعتزاز كبير لتقاليد الفروسية لفرسان مائدة كولومبوس مباشرة. والآن، وقد مرت سنوات عديدة، كان من المفترض والواجب عليه أن يكون قد تم زواجه فيها، لكنه كرجل ملتزم، وعليه مسئولية فى سلك الأتقياء، كان يجب أن ينتظر وقتًا كافيًا حتى يمتلك التماسك الخلقى الواجب، كما أن عليه أن يوفر ما يحقق له استقرارًا ماديًا، ليتيح له

القيام بالإنفاق على بيت بكل لوازمه مع استمراره فى مساعدة أبويه المسنين. ولقد تعرف على خوليا فى وقت سابق، إلا أن الحظ صادفه بعد ذلك بالعمل معًا فى المكتب نفسه، كما أنها سهلت له بدء تلك الصداقة التى راحت تتحول شيئًا فشيئًا إلى محبة عميقة.

لكن فى الأوقات الأخيرة، انتاب السيد دى لونا ارتباك شديد شوش على تفكيره. فخوليا قد طرأ عليها تغيُّر ملحوظ مما أثار شكوكه فى أن شيئًا خطيرًا لابد قد حدث لها، فهى تبدو متحفظة، وتتحاشى الكلام معه عندما يكونان بمفردهما، وهو يعانى فى صمت من هذا التغير غير المتوقع من خوليا، وكان أمله أن تفتح له قلبها فى يوم ما وتوضح له كل شىء. لكن خوليا تبتعد كل يوم أكثر مما سبقه. والسيد دى لونا بدأ يلاحظ أن الموظفين فى المكتب أيضًا، بدءوا يعلقون على تغير خوليا. وبعد ذلك تسربت إليه الأقوال الجارحة بما تحمله من نوايا سيئة، والتى تنال من فضائلها، وفى أول الأمر كانت النتيجة حنقًا شديدًا ثم اشتعال نار الشك، وثقته فيها اهتزت بداخله.

إزاء هذه الحالة التى وصل إليها، ذهب ليستشير نيافة الأب المبجل كويباس فى مشكلته، وهو الأب الذى ظل، ولسنوات طويلة، يعترف أمامه، وهو مرشده الروحى، والذى يقدم له حلولاً للمشكلات الصغيرة التى تعترض طريق الرجل الصالح. وحضرة الأب

المبجل نصحه "بأن ينتظر فترة كافية يحرص فيها على أن يرى خوليا، فإن عادت إلى ما كانت عليه من قبل، فبها ونعم المآل. أما إذا تصرفت عكس الذى نرجوه، فعليه أن يبتعد عنها بشكل نهائى. وفى الحقيقة، فلعل ذلك إشارة واضحة من الرب إلى أن هذا الارتباط لن يكتب له التوفيق، وربما هو محكوم عليه بالفشل وخيبة الأمل، وربما هو خطر بالغ وعقبة كأداء فى طريق الخلاص لروحه".

وفى الليلة الأخيرة من عمل الآنسة خوليا فى المكتب، جاءت إلى كارلوس دى لونا وطلبت منه أن يصحبها حتى بيتها لأنها تريد أن تطلعه على أمر مهم. وهو استقبلها بشكل فيه جفاء، وبطريقة أقرب لأن تكون عدائية، كما لو أنه استطاع فى هذه اللحظة أن يكتشف ويرى أمرًا سيئًا ومخيفًا. وارتبكت خوليا بشدة بما لم تعهده فى مثل هذا الموقف من كارلوس. وفى الطريق حكت له أنها سوف تترك العمل لمدة من الزمن، لأنها فى حاجة لأن تستريح. وسمعها كارلوس دى لونا دون أن يعلق بشىء. وكان له بقبعته السوداء، ومظلته السوداء، وبدلته الغامقة؛ مزاج مكفهر وصامت دائمًا. وفى هذا اليوم بدا أكثر وضوحًا. وبينما تعد القهوة، دعته خوليا لنزهة. وبينما كانا يتجهان إلى المقهى خامرها إحساس بحياة الرفاهية، إذ أن مظهر السيد دى لونا وحده يبعث على الثقة والطمأنينة. عاتبها، فألقت عليه نظرة أطول قليلاً خلال هذه الفترة الأخيرة، وعاد لعتابها ثانية، ومع أنه لم يكن

ملزمًا بذلك، فقد اعترف لها بمأساته. فهو قد ارتاح لها، وهما معًا، كانا قد عثرا على حل ما، وعندئذ قررت أن تتكلم مع كارلوس.

شربا القهوة فى صمت. وفجأة قالت له خوليا:

"- كارلوس... أحب أن أقول لك...

- قولى يا خوليا.

- ألا تحب أن تسمع موسيقى؟

- كما تحبين حضرتك.".

قامت خوليا، ووضعت بعض الأسطوانات والتى هى ضد رغبتها تمامًا.

وأبدًا لم تجسر. الكلمات تستعصى على الخروج، ربما ذلك الموقف البالغ الجفاء الذى تعامل به معها كارلوس، قد أخرسها. هذه النظرة البعيدة جدًا عندما كانت على وشك أن تبوح له بمأساتها. أمسكت بشغل الإبرة وجلست. وعندئذ بدأ كارلوس دى لونا فى الكلام وهو يتلعثم:

- خوليا، أريد أن أعرض عليكِ... أنا حقًا... فكرت... يا عزيزتى خوليا... أعتقد أنه ربما... كما يقال... آخذًا فى الاعتبار... خوليا... إنه من أجل صلاحنا وسلامة أرواحنا... والأكثر نفعًا هو أن نعتبر... وننهى... أريد أن أقول لكِ... ألا نمضى فى مشروع زواجنا...

وخلال ما كان السيد دى لونا يحاول أن يقول هذا، مسح جبينه بالمنديل عدة مرات. وكان شديد الشحوب مثل رجل ميت، وكان صوته يتقطع بشكل مستمر، وبعد ذلك ازداد هدوءًا، واستمر يتحدث عن "المسئولية الرهيبة التى تترتب على الزواج... والواجبات العديدة، ثم الواجبات التى على كل من الزوجين".

كانت خوليا ما زالت أكثر شحوبًا منه. سقط شغل الإبرة من يديها، وجف ريقها تمامًا، والألم المصاحب لخيبة الأمل كانا قد تسربا إليها تمامًا بالشكل الذى خافت معه ألا تستطيع نطق ولا كلمة واحدة، كانت تبذل جهدًا حقيقيًا ومضنيًا أكدت له به أنها تتفق معه، وأن هذا القرار بلا شك، هو الأفضل لكليهما.

وأحست الآنسة خوليا بنفسها مثل بيت غير مسكون، ومتهدم؛ ولم تجد لها مكانًا، ولا سندًا، وقد لبثت فى الفراغ؛ تدور حول نفسها بلا قدرة على أن ترى فى هذه الظلمة، تريد أن تغادر، وتمضى وتتوه فى النوم، وتنسى كل شىء. وتكلمت وقتها عن تحضير السموم، واختراع مصائد للفئران. كان لديها اعتقاد بأن هذه الحيوانات ستظل تطاردها حتى آخر يوم فى حياتها، وكل مقاومة لها غير مجدية.

لم تذهب بعد ذلك أيام الأحد لتناول الغداء مع أختيها؛ لأنها لم تعد قادرة على تحمل الضجة التى يحدثها الأطفال، دون أن نستثنى من ذلك لعب الكوتشينة. كانت تشغل نفسها بشغل الإبرة المتواصل

بيدين مرتعشتين، وبين وقت وآخر تمسح دموعها، وتتوقف عن شغل الإبرة، فقط، لكى تقوم بعمل أقل ما يمكن من ترويق البيت وإعداد أى أكل لتتناوله. وأحيانًا تقبع للحظات نائمة فى الكرسى، وهذه كانت الراحة الوحيدة التى تتحصل عليها. وأختها «ميلا» كانت تذهب إليها كل ليلة لكى تكون بجوارها، خوفًا عليها من أن يحدث لها شىء لو تركاها وحدها. و«ميلا» المرهقة من شغل بيتها، سقطت من طولها وغرقت فى النوم، وأحيانًا كانت توقظها خطوات خوليا التى تروح وتجىء بطول البيت وعرضه وهى تفتش عن الفئران. "تلك الفئران الشياطين التى لا تدعها تنام...".

كانت «خوليا» تحتفظ بعينيها مغمضتين، لكنها كانت تستيقظ وتتنصت على الجلبة فى الغرفة... على السلم... تلك التى تجرى... تقفز... تنزلق... وبعد ذلك تدخل وتكون فى غرفتها... تصل حتى سريرها... وتحت السرير. تفتح عينيها وتستوى قائمة فى كرسيها. تسلل ضوء شحيح من بين فرجات درف الشيش الخشبى القديم. وسمعت شيئًا مثل الجفول، والهروب السريع. ميزت ظلالاً تتطاول، وتأكدت من أنها ترى عيونًا مدورة شديدة الاحمرار، واللمعان. أضاءت النور وقفزت من السرير. لقد عثرت عليها بالفعل، وبعد زمن من البحث غير المجدى عادت إلى السرير وهى ترتجف من البرد. وبكت فى سرها، وأخذت تشد شعرها فى يأس وهى تغرس أظافرها

فى باطن كفيها مسببة لنفسها أذى تحس به الآن بالفعل.

فى هذا الصباح نهضت الآنسة خوليا من فراشها وقد بذلت جهدًا هائلاً، مشت بضع خطوات وهى تترنح، ووقفت لدقائق أمام مرآة الدولاب لتعيد تمشيط شعرها... ملامح الوجه التى رأتها منعكسة فى المرآة لا يمكن أن تكون أكثر من ملامح وجه منحوس.

فتحت درفة الدولاب لتبحث عن شىء تلبسه و... إنهم هنا! ألقت بنفسها عليهم وأحكمت قبضتها وحصارها لهم بعنف... أخيرًا عثرت عليهم!.. الشياطين، الشياطين، إنهم هم! هم بعيونهم الحمراء التى تلمع... إنهم هم الذين لم يتركوها لتنام والتى كانوا يقتلونها شيئًا فشيئًا، لكنها اكتشفت مكانهم وهم الآن تحت رحمتها... لن يرجعوا للجرى طوال الليل، ولن يثيروا الجلبة مرة أخرى... لقد أنقذت... وستعود لتنام... وستستعيد سعادتها... لقد أمسكت بهم هنا... بقوة... وسوف تريهم للناس كلها... لهؤلاء الذين بالمكتب... ولكارلوس دى لونا... ولأختيها... وكلهم سوف يكفون عن تفكيرهم السيئ فيها... وسوف يشعرون بالندم... ستنسى كل شىء... الشياطين... الشياطين! أى أذى بمثل هذه الفداحة ذلك الذى سببوه لها!... لكنهم أصبحوا هنا... بين يديها... انفجرت ضاحكة فى قهقهات... وشددت أكثر ضغطها

عليهم... تمشى من ناحية لأخرى فى الغرفة... كانت شديدة السعادة بأن اكتشفت مكانهم بعد أن كانت قد فقدت كل أمل... ضحكت بصوت عالٍ... الآن هم تحت رحمتها... وهى وحدها صاحبة التصرف فيهم... والآن هم لن يسببوا لها أذى بعد ذلك أبدًا... كانت تتكلم وتضحك... وبكت من الانفعال والفرحة... صرخت... صرخت... يا لى من محظوظة أن أعثر عليهم... أى حظ هذا!... ابتسمت وانتحبت، واندفعت تصرخ، وتقهقه مع هذه العيون الحمراء اللامعة... واندفعت تصرخ... تصرخ... تصرخ...

وعندما جاءت إليها «ميلا»، وهى تدعك عينيها وتتثاءب، وجدت خوليا تحتضن بعنف وشراسة، تلفيحتها الجميلة من فرو السمور.

# حين تقطعت الأوصال

فى أول الأمر كان الألم لا حد له. موت وشيك يقع فى صمت وفى ظلمة العاصفة التى تقتلع الجذور فجأة لتلبث واقفة بلا سند، ثم تسقط خرساء لتهوى من قمة عالية. ذكرى، رؤية، مشهد، مشهد للسكون، للماء... الكلمات مثل شىء يلمس وينبض، الكلمات كوجود مادى لا يمكن تفاديه. وهذا كله مصحوب بموسيقى مبهمة وساحرة. موسيقى لا تعرف من أين تأتى، لكن أسمعها. تأتى بعدما يحوم الصقر فوق الأرض، دهشة العصفور فى اليوم الأول لطيرانه. كل شىء كان مفرحًا عندئذ وأثيريًا. الجوهر كان مثل الدخان، أو الحلم، والضباب تحول إلى شىء لا واقعى. كل هذا دام للحظة. الشىء الوحيد الذى أحببته هو أن أضم المسافات، وأتمكن من أن ألمس السقف باليدين، وأن أخترقه، أو أظل طافية فى وسط الغرفة. صاعدة وهابطة كما لو كنت أتحرك بزنبرك غير مرئى. وكل

ذلك أبعد من أن يسمع له صوت. حيث الخطوات لا يمكن لوقعها أن يسمع. يمكنها أن تجيء وتخترق الجدران. يمكنها أن تضحك أو تبكى، تصرخ يائسة، ولا تحب فى الوقت نفسه أن يسمعها أحد. لا قيمة لشيء سوى التذكر. واللحظة التى بلا نهاية كانت مهجورة من البشر، بلا متفرجين لكى يصفقوا لها، دون صيحات إعجاب. لا شيء ولا أحد يتجاوب. المرايا تظل صماء لا تعكس نورًا، ظلاً، ولا نارًا.

دخلنا بستانًا قديمًا، أبى وأمى وأنا. كان الباب مفتوحًا عندما وصلنا، ولم يكن هناك لا كلاب ولا جناينى. كنا سعداء جدًا ونحن ممسكون بأيدى بعضنا البعض. وأنا بينهما. كان أبى يصفر وهو سعيد، وأمى تحمل سلة لتشترى فيها الفاكهة. كانت هناك زهور كثيرة ورائحة فواكه ناضجة. وصلنا إلى وسط البستان، وهناك كان حوض النافورة بسمكات ملونة. أفلت يدىَّ من أيدى أبوىّ وجريت إلى حافة حوض النافورة، وعلى أرضية قاع الحوض كانت توجد تفاحات حمراء كروية، وكانت الأسماك تسبح مارة فوقها دون أن تلمسها. أحببت الفرجة عليها وأردت أن أراها بشكل أفضل، فاقتربت أكثر فأكثر من الحافة، لكن أبى صرخ:

- لا يا بنت، فأنتِ يمكن أن تقعى.

استدرت لرؤيتها، فرمت ماما السلة، وأخفت وجهها بيديها. وأنا صرخت:

- أنا أريد تفاحة يا بابا.

- التفاحات مشكلة يا بنت.

- أنا أريد تفاحة، تفاحة كبيرة وحمراء مثل هذه التفاحات...

- لا، يا بنت، انتظرى... أنا سأبحث لك عن تفاحة أخرى.

وقفز داخل حوض النافورة. وما أن وصل إلى عمق الحوض وحده، حيث كانت التفاحات متناثرة على أرضية الحوض، والأسماك تسبح فوقها، بينما يتناثر الماء خارج حافة الحوض والإعصار يحمله إلى الهواء فى دوامة هائجة. استدرت راجعة إلى بابا وماما.

ولم أتمكن من رؤيتهم. دارا حول نفسيهما، وتدحرجا فى المياه، فى المياه التى*انتزعتهما وأخفتهما عن نظرى، وظلت تبعدهما عنى كل مرة أكثر فأكثر. أحسست بالتهاب مزعج فى حلقى... بابا، ماما... بابا، ماما... أنا غلطانة... بابا، ماما... و... أخرجا من الحوض... فالآن لم يعودا هناك. مختفيين بالإعصار والمياه... بدأت أنخرط فى البكاء وأنا يائسة... لقد ضاعا... وتملكنى خوف وأحسست ببرودة شديدة... لقد فقدتهما... فقدتهما! وتملكنى الإحساس بالذنب، وأخذت الدنيا تظلم... والخوف يتملكنى ويستبد بى الإحساس بالبرد... بابى، مامى... ونظرت إلى تحتى؛ وفى قاع الحوض كانت هناك بركة من الدم...

رجل عربى كان يبيع أقمشة بالغة الرقة والنعومة، والتى كانت تملأ رفوف دكانه الكبير. قلت له:

- أنا راغبة فى قماش جميل... أجمل قماش عندك لأعمل منه فستانًا... فأنا أحب أن أبدو فى منتهى الأناقة، ولابسة أجمل فستان لتلك الليلة.

- أجمل الأقمشة فى الدنيا تجدينها عندى يا سيدتى... وانظرى: هذا قماش مقصب فاخر مستورد من دمشق. ألا تحبينه؟

- نعم. لكن أنا أريد قماشًا أرق من هذا. لأن قماشات القصب ليست مناسبة لهذا الغرض.

- طيب. عندى هذا. انظرى إلى هذه الرسومات وجمالها... انظرى هذه الأحصنة والزهور... هذه الفراشات وهى تكاد تطير قافزة من القماش... انظرى لها كيف تمضى... تمضى، وبعد ذلك تعود... الأحصنة تعود فى الذاكرة وحدها، والفراشات ميتة، والزهور مصبّرة... كله اكتمل، وتحلل، يا سيدتى العزيزة.

- لا تقل ذلك بحق الرب! فأنا لا أحب الأشياء الميتة، ما أحبه هو ما يبقى، ما هو خالد... وليس الذى يصيب الناس بالهوس ليوم واحد ولا الذوق المؤقت - الموضة - هذا القماش مرعب، يؤذينى، ارفعه، ارفعه...

- وماذا تقولين إذًا عن هذه القماشة الثانية؟

- جميلة... جميلة جدًا فى الحقيقة... إنها من الرقة حتى لتتموج كمياه البحر...

- لا يا سيدتى، حضرتك غلطانة بالكامل. إنها لا تتموج كمياه البحر الصافية... هذه قماشة تعطى الإحساس بالفوضى، بل هى الفوضى كلها، وفوضاها لا يمكن تخيلها... ومع ذلك، فهى تظل بلا شك، قماشة لفستان جميل...

- أبعد عنى هذه القماشة التى تثير الارتباك، فأنا لا أريد أن أراها أكثر من ذلك... أريد قماشة جميلة...

هذا ما قلته له، فنظر العربى لى بعينيه السوداوين العميقتين وهما تلمعان، وعندها اكتشف قطعة قماش فوق مائدة:

- إذًا أرنى هذه القماشة، وأعتقد أنها ستعجبنى.

- جميلة جدًا... حقيقى؟

- نعم وهى تعجبنى بما فيه الكفاية.

- لكنى لا يمكن أن أبيعها.

- ولماذا لا؟

- لقد انقضت عدة سنوات، منذ أن تركتها سيدة بعد أن قطعتها لها، ولا أعرف متى ستأتى لتأخذها.

- ربما نسيت قطعة القماش فعلاً. فلماذا لا تبيعنيها لى؟.

ـ لو أنها نسيتها، فهذا لا يهم، لأن قطعة القماش ستظل هنا، فى مكانها، دائمًا، دائمًا، دائمًا، ولكن من المخاطرة يا سيدتى العزيزة، هل تعرفين حضرتك ما تعنيه الكلمة؟ حسنًا، كيف تبدو لكِ التى عندى هنا؟

ـ جميلة جدًا، إننى أريدها.

ـ أنصحكِ، بأنكِ لابد أن تعرفى أنه مع هذه القماشة، لن أبيع شيئًا. فهى فى أفضل الأحوال تصلح لتزيين فستان آخر. لكن عندى هذه لكى يتم تفصيلها بشكل متقن وجميل... انظرى إليها، أى حرير أكثر نعومة من هذا، أو لون حسن الذوق إنه مثل بتلة وردة...

ـ عندك حق. إنها مناسبة جدًا لهذا الفستان الذى أريده. وهو بالضبط ما كنت أفكر فيه.

ـ سوف ترينها حضرتك مثلما ترين وردة حية تتنفس. إنها أحسن قماشة عندى، وستأخذينها بلا شك.

ـ طبعًا، اقطع لى ثلاثة أمتار.

ـ لكن، ما الذى أسمعه؟ أأقطع لك ثوب القماش هذا؟ اجعله قطعًا؟ أية جريمة مثيرة للرعب أكثر من ذلك! هذا لا يمكن أن يحدث. لا. فدم ثوب القماش هذا سيجرى أنهارًا ويملأ دكانى، ويلطخه كله، ويتصاعد الدم حتى الحلقوم ويغرقنى. لا، لا. أية جريمة اغتيال لهذا الثوب! اغتيال يتم ببرود وذلك

فقط لأنه ثوب جميل، ولأنه رقيق وعاجز عن الدفاع عن نفسه؟ أى عار، وأى شر، وكيف تبلغ بك الحقارة إلى هذا الحد يا سيدتى، فتبدين ضعيفة، وذليلة، وكل هذا من أجل نزوة! آه... أية قسوة، أية قسوة لكن شرك سيكلفك وجهك الطيب، وسوف تدفعين ثمنًا غاليًا، ولن تستطيعى حتى أن تندمى لأنهم لن يمنحوكِ الوقت لذلك. انظرى، انظرى فى كل ناحية، فى كل الخزانات، وعلى كل البنوك، توجد فقط أقمشة خالية، فراغات، متروكة، كلهم خرجوا، كلهم أتوا إلى هذه الناحية، ناحية حضرتك، وأخذوا يقتربون، كل مرة أكثر، أكثر، أكثر، أكثر ضيقًا، أكثر قربًا، حتى أن حضرتك لن تتمكنى فعلاً من أن تتحركى، ولا أن تتنفسى، هكذا، هكذا، هكذا...

دمٌ، كم هى كريهة رائحة الدم! العظمة الكبرى للساق ملتصقة. وعندما أمسكت بها أصابنى الرعب، وأصابتنى بالنفور. مسحت يدىَّ بالفستان وبكيت بلا عزاء. ومخاطى يتقطر من أنفى... ورغبت فى إخفاء نفسى تحت السرير، فى الظلمة، حيث لا يمكن لأحد أن يعثر علىَّ... "لوثيندا، طفلتى، دعينى أخلع عنك هذا الفستان وأغسل لكِ يديك ووجهك، فهم ملوثون بالدم، يا صغيرتى". وماما مسحت أنفى بمنديلها... ماما، ماما، لماذا ذبحوا الخروف؟ نزف دمًا كثيرًا ساخنًا، وأنا تشبثت بماما، وظللت ممسكة بها، وهناك فى الحوش حمَّمُونى وألبسونى فستانًا آخر، وأخذتنى كنثيليا إلى العيد... وبابى أعطانى نقودًا كثيرة...

وركبت الأحصنة الخشبية ذات اللون الأبيض ودارت بى فى لفات كثيرة، كثيرة دوختنى وجعلتنى أشعر بالغثيان... وكنثيليا اشترت لى قطنًا أحمر وآيس كريم ڤانيليا... والقطن الأحمر تكور وانحشر فى حلقى فتقيأته مرة، ومرة ثانية... وفمى امتلأ بالشعيرات، الشعيرات المتصلبة بدم متجمد... قطن مدمم، وكنثيليا تضع القطن فى فمى... "افتحى فمك يا ابنتى، خذى إذًا جرعات صغيرة، جرعات صغيرة فقط، استمرى... أنا أعرف فائدتها لكِ، هيا اشربى، وسوف تجعلك أحسن". أنا لا أحب هذه الشوربة الثقيلة... أنا سأتقيأ، لا تسقونى هذه الشوربة الفظيعة، إنها دم الخروف. وعظمة الساق هذه ثقيلة؛ ذراعى يا بابا تؤلمنى جدًا، زنجى ضخم وسمين قعد فوق ذراعى، لا يتركنى أحركه. ذراعى يا بابا، قل له أن يذهب، إنه يؤلمنى بشدة. سأتقيأ الشوربة مرة أخرى، كم هى ثقيلة، وكم هذا النبيذ مرٌّ.

داخل مكتبة حديثة، مليئة بالڤاترينات الزجاجية، والنباتات، وحاملات الرفوف (الإستاندات) مليئة بالكتب التى تعلو حتى تبلغ السقف. والناس تخرج محملة بالكتب وتمضى فى سعادة بالغة، دون أن تكون قد دفعت ثمنًا لها. والرجل الجالس خلف الخزينة يتنهد بحزن مع كل مرة يخرج فيها شخص، ويسجل شيئًا ما فى دفتر كبير مفتوح فوق المنضدة. عندئذ شرعت أسرع فى أخذ الكتب قبل أن تنفد. حملت كثيرًا منها مثل بقية الناس، وبالفعل كنت قد فزت

بكوم كبير عالٍ، ولكن عندما أردت حملها والتحرك بها أدركت أننى لن أستطيع ذلك من كثرتها وثقلها، فذراعاى آلمتانى بشكل فظيع مع كل هذا الثقل، والكتب ستجعلنى أقع دون أن أتمكن من النهوض، واتضح لى أنها بدأت تنزلق من بين ذراعىَّ. قررت أن أتخلص من بعضها، لكن ولا حتى بذلك أيضًا سأتمكن من حمل الكتب التى بقيت معى. واستمر فى ذراعىَّ ألم لا يمكن تحمله، والكتب تثقل عليهما أكثر فأكثر، وتركت كتبًا أخرى، وكتبًا ثانية أكثر، حتى تبقى معى كتاب واحد، لكننى لم أتمكن من أن يبقى معى حتى كتاب واحد... وعندئذ انتبهت إلى أنه لم يعد هناك بالفعل أحد من الناس، ولا حتى الرجل الجالس خلف الخزينة. فكل الناس ذهبوا، ولم تعد هناك الآن أى كتب، حيث أخذوها كلها معهم. وشعرت بالخوف الشديد فذهبت باتجاه باب الخروج. وبالفعل لم يكن موجودًا. وبدأت أجرى من ناحية لأخرى وأنا أبحث عن باب. لكن لم تكن هناك أبواب، ولا حتى باب واحد. الموجود فقط حوائط وعليها صناديق مكتبة خاوية كتوابيت موضوعة بشكل رأسى. شرعت فى الصياح والخبط بقبضتى بأمل أن يسمعونى ويخرجونى من هنا، من تلك الصالة التى بلا أبواب، تلك المقبرة، وأخذت أصرخ وأصرخ ويتعالى صراخى وأنا يائسة. ولحظتها أحسست بوطأة حضور جاثم غامض وعديم الملامح. أنا لا أراه، لكنى أشعر به تمامًا. كان حضوره فجًا، وكنت محاصرة به ولا مخرج

لى. وبدأت أتراجع خطوة خطوة، ببطء حتى لا أتعثر وأقع، ثم خطوت للأمام أيضًا، فأنا أعرفه، وأحسه بكل كيانى. ثم لم يعد باستطاعتى بالفعل أن أمشى خطوة أزيد من ذلك، إذ اصطدمت بالبائع صاحب المكتبة؛ فسال عرقى بغزارة، وصعدت صرخاتى حتى حنجرتى لتتعالى، وهنا اختنقت هادرة بصوت لا شىء واضح فيه. والآن صار يقترب منى بشدة، ثم يزداد قربًا، وأنا هنا دون أن أستطيع فعل أى شىء، ولا أن أتحرك، ولا أن أصرخ، وفجأة...

كنت واقفة على الرصيف فى إحدى محطات السكك الحديدية، أنتظر قطارًا. لم تكن معى حقيبة سفر... وكنت أحمل بين يدى حوضًا زجاجيًا للأسماك الملونة، وبه سمكة زرقاء صغيرة جدًا... وصل القطار، فركبته بسرعة خوفًا من أن يقوم بدونى ولا ألحق به. كان مزدحمًا بالناس. تجولت فى عدة عربات وأنا أحاول أن أجد لى كرسيًا، خائفة من أن ينكسر منى حوض الأسماك. ووجدت مكانًا بجوار رجل سمين يدخن سيجارًا، وبملء فمه يطلق الدخان، فينطلق من فمه وأنفه وعينيه. بدأت أدوخ ولا أرى ولا أشم شيئًا سوى الدخان. دخان ثقيل يتسرب إلىَّ من كل ناحية برائحة لا تحتمل. وبدأت معدتى تتقلص فجريت إلى حوض الحمام. وكان الحمام مقفلاً بقفل. وفى يأسى أردت أن أفتح إحدى نوافذ القطار، إلا أنها كانت "مبرشمة" لم أستطع أن أصبر لوقت أكثر من ذلك، فتقيأت فى حوض الأسماك. تقيؤ أسود ثقيل. وفى

تلك اللحظة لم أستطع رؤية السمكة الصغيرة الزرقاء، واتضح لى أنها ماتت. وغطيت عندها حوض الأسماك بمنديلى المطبوع عليه أزهار، وأخذت أبحث عن مكان آخر. وفى العربة الأخيرة من عربات القطار عثرت على مكان لى. كان كرسيًا فى مواجهة امرأة ترتدى فستانًا أنيقًا. وكانت المرأة تتطلع للخارج من شباك القطار. لكنها فجأة انتبهت لحضورى، وظلت تنظر إلىَّ باهتمام وبشكل متواصل. وهى كانت أنا نفسى؛ أنيقة وعجوزًا. أخرجت من شنطة يدى مرآة، حتى أقارن بشكل أدق بين ملامحها وملامحى. لم أستطع رؤية نفسى، فالمرآة لم تعكس صورتى. شعرت ببرد وبخوف يجتاحنى من أننى لم يعد لى وجه، وحتى لا أكون أكثر من كونى أنا... ألا أكون سوى تلك المرأة الضامرة ذات الفراء، المزدحمة بالأحجار الكريمة، أنا لا أحب أن أكون هى. فهى بالفعل كانت عجوزًا وماضية نحو الموت غدًا، وربما فى هذا اليوم نفسه. أردت أن أنهض لأهرب من هذا القطار. أتحرر منها، والمرأة العجوز تظل تنظر لى بشكل متواصل. وتوقعت أنها لن تتركنى أهرب. وفى هذه اللحظة أقبلت باتجاهنا امرأة سمينة، تحمل طفلاً صغيرًا، وجاءت لتجلس بجانبى. نظرت إليها ملتمسة مساعدتها لى. لكنها كانت أيضًا أنا هذه الأخرى. وأسقط فى يدى، فلن أتمكن الآن من الخروج، ولا الهرب، لقد حاصراتانى، والطفل انفجر فى البكاء متضايقًا بشدة كما لو كان هناك شىء ما يؤلمه. والأم، والتى هى أنا

نفسى سدت فمه بمنديل بنفسجى، وبهذه الطريقة خنقته. أحسست بألم مرير من أجل الطفل، يا لطفلى المسكين! وانطلقت منى صرخة، صرخة واحدة فقط، والمنديل الذى سدا به فمى كان مرعبًا، بحجمه الهائل، وهما تدخلانه فى فمى حتى البلعوم ثم للداخل أكثر، فأكثر...

# المــرآة

ما أن حكت لى أمى ما فعله ذلك بها حتى استبد بى شك هائل، وما كان يقلقنى أنها ربما بالغت فى تضخيمه، وإن كنت قد حاولت ألا أشغل نفسى بالتفكير فيه:

قبل ذلك بعشرين يومًا، كانت ساقها قد انكسرت عندما انزلقت قدمها من فوق درجة سلم بيتنا. وكان الحصول على غرفة فى مستشفى سانتاروسا مكسبًا حقيقيًا، إذ أنه المستشفى الأفضل بين كل المصحات فى المدينة، كما أننى تحت ضغط الضرورة الملحة للسفر إلى الخارج؛ ملزمًا بأن أوفر لماما مكانًا يليق بها، حيث تحظى بكل أنواع الاهتمام والرعاية. ومع ذلك كله كنت أحس بتأنيب الضمير لأنى سأتركها وحدها فى المستشفى. وهى ضيقة الصدر بسبب جبيرة الجبس وآلام الكسر. ولكن عملى فى شركة الجرارات والماكينات الزراعية فرضت علىَّ هذا السفر

بوصفى المشرف على المبيعات، ولا بد أن أواصل التفتيش عليها من وقت لآخر فى المناطق المختلفة التى ينزل بها المندوبون المسافرون إذ أن ما يحدث عادة هو أن بعض العاملين فى مكاتب البيع لا يقومون بعملهم كما يجب فى مجال المنافسة. ولأن المنافسين كثيرون، فإن الآخرين يحققون مبيعات هائلة. ولأننى أحب عملى، فإن الشركة التى أعمل بها قد عبرت عن تقديرها لى وعبرت دائمًا عن كرمها الشديد معى؛ لأننى "عنصر جيد" حسب الرأى السائد عند الرؤساء. ولقد منحونى مرتبًا كبيرًا، وأنعموا علىَّ بأكثر من طريقة من طرق التكريم، وفى هذه الظروف لم يكن باستطاعتى التأخر عن الاستجابة لهم عندما يحتاجوننى. والحل الوحيد الذى اهتديت إليه؛ هو أن أترك أمى فى مصحة عالية المستوى، وأن تتولى العناية بها ممرضة مخصصة لها.

خلال الثلاثة أسابيع التى استغرقها سفرى حصلت منى المستشفى على تكلفة العلاج عن كل يوم، لقاء الاهتمام بصحة أمى، ومتابعة أخبارها التى كنت أتلقاها عنها. وكانت أخبارًا طيبة ومطمئنة بما يكفى باستثناء "ارتفاع درجة الحرارة التى تحدث بعد منتصف الليل، مصحوبة باضطرابات عصبية".

ويوم عودتى حضرت فى مكتب عملى، فقط، لأحيطهم علمًا بوصولى، ومضيت مسرعًا إلى المستشفى لأرى ماما. وما أن رأتنى حتى أطلقت

صرخة غريبة، لم تكن صرخة من المفاجأة، ولا من الفرحة، بل كانت الصرخة التى يمكن أن يطلقها من يواجه عند دخوله بيتًا بحريق حاصرته فيه ألسنة النار ثم لمح ظهور من سينقذه. هكذا أحسست بها أنا. كانت ساعة الغداء لدهشتى الشديدة، تأكدت من أن ماما، تقريبًا، لم تحاول وضع لقمة فى فمها، وهذا كله بالرغم من أنه كان أمامها طبقها الصغير المفضل: كستليته (ضلع) مدخن، وشربة سبانخ مركزة. كانت ماما شاحبة، والهزال باديًا عليها، ويداها المتوترتان المرتعشتان، تكشفان عن حالتها العصبية. لم تشرح لى ما الذى حدث لها. كانت دائمًا سيدة هادئة، متماسكة ومتفائلة.

منذ أن مات أبى، وبعد موته بعشر سنين، عشنا نحن ـ الاثنين ـ فقط، ومعنا الخدم، فى بيتنا الكبير، وعلى الرغم من أنها كانت تحب أبى حبًا شديدًا؛ نجحت فى أن تتماسك بعد غيابه. ومن أيامها تولد بيننا ما جعلنا كما لو أننا أصبحنا شخصًا واحدًا، وصار كل واحد منا بالنسبة للثانى بمثابة قاضٍ صارم. كانت حياتها متيسرة، فلم تعانى من متاعب اقتصادية مع الميراث الذى تركه أبى، ومن دخلى من عملى، فاستطعنا أن نحيا فى بحبوحة من العيش.

كان الخدم منهمكين بشكل كامل فى شغل البيت، وأمى ترتب كل شىء فى وقته؛ فمثلاً هناك أوقات للزيارات، وأوقات للمشتريات، وأوقات لمعارض

اللوحات الفنية، وأوقات للعبة البريدج مرة أو مرتان فى الأسبوع، وكذلك للمسرح، وللسينما...

فى الثلاثة أسابيع تلك؛ عانت أمى من تغير ملحوظ، فتأكدت عندئذ من ذلك الاضطراب العصبى الذى أخبرونى به، وعندما خرجت الممرضة وهى تحمل صينية الطعام؛ وهو تقريبًا لم يمس، فاجأتنى وهى تقول لى بصوت خافت، لكنه مشحون باليأس والضيق: "حبيبى، أنا فى حاجة لأن أتكلم معك، فقد حدث لى شىء فظيع، لكن لا أحد غيرك يجب أن يعرفه، فلا أحد غيرك سيقدر هذه المسألة. تعال غدًا، أرجوك. وفى الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما تنصرف الممرضة لتناول غداءها؛ يمكننا أن نتكلم".

تركتها بوعد منى، أن أعود إليها فى اليوم التالى. ومهمومًا بشدة مما تبدو عليه أمى، ذهبت لأرى الطبيب المسئول عن رعايتها. "السيدة تعانى من انهيار عصبى إثر سقوطها والرضوض والجروح التى حدثت بها، وهذه أمور لا يمكن تجنبها فى الحوادث". قال لى ذلك دون أن يعطى المسألة اهتمامًا كبيرًا. وعندئذ شرحت له آنا كيف أن أمى لم تترك أى انطباع أبدًا بأنها وصلت إلى مثل هذه النقطة... ـ "وعليك أيضًا أن تأخذ فى الاعتبار سن والدتك... ـ ثم قال ـ عادة ما يحدث لنساء هادئات، متماسكات، عندما يصلن إلى سن معينة، أن تنقلبن سريعتى الاستثارة، وتعانين من مظاهر الهستيريا.." ـ خرجت

من استشارة الطبيب، وأنا غير راض وثائر الأعصاب، فآراء الطبيب لم تنجح فى إقناعى. وفى تلك الليلة لم أنم، ولم أستطع الذهاب إلى المكتب فى اليوم التالى.

وقبل الساعة الواحدة كنت عند ماما فى المستشفى، عيناها كانتا محمرتين، والجفون ملتهبة، وما توقعته وجدته، فقد كانت تبكى، وما أن صرنا بمفردنا حتى قالت لى:

- لقد عشت أشد الأيام كربًا، مما لا يمكنك أن تتخيله، ولك أنت فقط، يمكننى أن أبوح بما حدث لى. وستكون أنت القاضى الوحيد الذى سيبرئنى أو يديننى (أن يكون الواحد منا قاضيًا للآخر هو ما أقسمنا عليه بعد وفاة أبى). - يخيل لى أننى فقدت عقلى - قالت لى ذلك فجأة، بعينين ممتلئتين بالدموع. وبحنوٍّ أخذت كفيها بين راحتىَّ، ورجوتها: احكِ لى كل شىء، كل شىء.

- كان هذا فى اليوم التالى لسفرك، بالليل. كنت أتهيأ للنوم عندما دخلت لولو ممرضة وردية الليل غرفتى لتعطينى الدواء الذى آخذه عند منتصف الليل. وأتذكر أنها وضعت القرص فى فمى بملعقة صغيرة ثم أعطتنى الكوب وبه الماء. ابتلعت القرص، وفى هذه اللحظة، ولا أعرف لماذا حدث ذلك، نظرت ناحية مرآة دولاب الملابس و...

قطعت ماما فجأة حكايتها وهى تخفى وجهها بين راحتيها. حاولت أن أهدئها ماسحًا على شعرها، ولما

كشفت عن وجهها وتمكنت من رؤية عينيها؛ اقشعر جسدى. وبقينا لحظة صامتين كغريبين، كل منا فى مواجهة الآخر. لم أسألها عما حدث، ولا عما رأته، أو اعتقدت أنها رأته فى المرآة. هل كان ذلك حقيقة أم خيالاً، فلا بد أنه شىء مرعب حتى أنه يزلزلها بهذه الدرجة. وواصلت:

- أعتقد أننى صرخت، وبعدها فقدت الإحساس بما حولى. وفى صباح اليوم التالى، فكرت أن ذلك كله كان حلمًا. ولكن فى الليل، فى الساعة نفسها، حدث مرة أخرى، وهو نفسه صار يحدث ليلة وراء ليلة...

بعد هذا الحديث مع أمى بدأت أنا أيضًا أعيش أشد الأيام كربًا فى حياتى: فقدت الاهتمام بعملى، وسيطر علىَّ إحساس بأننى متعب وحركتى باتت بطيئة، وخيّل لى أننى فقدت عقلى... فالتوقف عن حكى الحكاية، والكرب الشديد الذى غير ملامحها، ويأسها، هذا كله دار بشكل متواصل فى ذهنى:

- "عندما كانت الممرضة لولو تعطينى قرص الدواء نظرت إلى المرآة.." وحاولت أن أبعد عن ذهنها الخوف الذى بدأت أنا نفسى أحس به. وعدتها بأننى سأجعلها على بينة من المسألة كلها، وسأعمل على أن تستعيد الطمأنينة والثقة بنفسها. نقلت للأطباء الأحوال التى وجدتها بها، فقرروا أنها تحتاج لقدر كبير من الراحة، وسمحوا إلىَّ بزيارتها فقط يومى الأربعاء والأحد.

قضيت ساعات النهار والجانب الأكبر من الليالى محاولاً أن أجد تفسيرًا لكل ذلك وطريقة لعلاجه.

وفى يوم فكرت بأمر يتعلق بأمى، إذ ربما تكون قد أساءت بشكل ما إلى الممرضة «لولو»، بوعى أو بدون وعى، أو أنها استعادت ذكريات تجربة ما عاشتها فى طفولتها، فعاودتها تلك الحالة الغريبة. وذهبت رأسًا لرؤية رئيسة الممرضات وأرجوها أن تغير ممرضة وردية الليل، وأعتقد أننى تصرفت التصرف السليم، إذ حلت الآنسة «إدوڤيدجيس» محل الممرضة «لولو». ومن جانبى فقد شعرت بارتياح كبير. ذلك ما حدث يوم الخميس، وعلىَّ أن أنتظر حتى يوم الأحد لأعرف نتيجة هذا التغيير.

ويوم الأحد، استيقظت مبكرًا، ودون إبطاءٍ ارتديت ملابسى لأننى أردت أن أكون فى الساعة العاشرة صباحًا بالضبط فى المستشفى. وتناولت فطورى فى عجلةٍ وتوتر زائد، وفى الطريق اشتريت زهور قرنفل، لأن ماما تحب الزهور جدًا، ويرفع معنوياتها كثيرًا أن تهدى إليها.

لقد بذلت كل جهدها وباهتمام شديد لتعد نفسها لاستقبالى، لكن لا أحد ممن يعملون فى مجال التجميل باستطاعته أن يزيل آثار العذاب الداخلى الذى بات ينهكها. وقلت لها عندما صرنا بمفردنا:

- حسنًا يا أمى، هل كانت الممرضة الجديدة لطيفة معك؟

ـ نعم، هى مهذبة ولطيفة، لكن...

ـ لكن ماذا؟...

ـ ما يحدث مستمر، وهو نفسه. ليست هى السبب فيه، ولا الأخرى كانت السبب... لا ذنب لأحد فيه... إنها المرآة، المرآة...

وهذا كل ما استطعت التأكد منه... وماما لم تقدر أن تحكى لى أكثر مما حكت. والشىء الوحيد الذى كان فى ذاكرتها عن "ذلك" من الواضح أنه شوش ذهنها تمامًا. وأبدًا، لم أشعر بالاكتئاب واليأس فى يوم من الأيام، أكثر مما شعرت به يوم الأحد هذا، وأنا خارج من المستشفى.

يومها قررت أن أنقل أمى إلى مصحة أخرى، بالرغم من المصاعب التى ستترتب على نقلها، والإقدام على مخاطرة قد تعرض الجبس للكسر. لكن لا يمكننى أن أتركها هكذا ليقضى الألم عليها يومًا بعد يوم. ربما فى مكان آخر تهدأ وتنسى ذلك الكابوس. غرفتها فى المستشفى كانت غرفة ممتازة، ومن أحسن الغرف التى هناك. وهناك اهتمام بنظافتها، كما أنها مجهزة بأثاث مختار بعناية ولطيف، والمرآة الوحيدة بالغرفة كانت مرآة دولاب الملابس. وتحت المظهر الذى لا يخص أحدًا تبعث هذه الغرفة على الاكتئاب، يغمرها النور، ومشمسة بنافذة تطل على الحديقة، ومع ذلك فهى لا تحبها ولا تجد القدرة على تحملها والقبول بهذا الوضع. وخلال أيام كنت

أفتش خلال الساعات التى ليس بها التزامات فى العمل، والتى تتيحها لى وظيفتى، عن مكان أفضل أستطيع أن أنقلها إليه. وفى مصحات الدرجة الأولى، لم يكن هناك مكان وعلى الرغم من الطلبات الكثيرة والتى لم يلتفت إليها بعد جولة شاقة. وفى المصحات التى وجدت بها مكانًا، كانت الغرفة مقبضة، بل وحتى قذرة، ولذلك لم يكن ممكنًا نقل ماما إليها، بالوضع الذى وجدناها عليه؛ والذى تزداد فيه حالتها ترديًا.

فى ذلك اليوم، وصلت إلى المستشفى وقد خاب أملى تمامًا، وخفت أن أدخل غرفة ماما، وأخبرها بعدم العثور على مكان بديل تنتقل إليه. كانت شاحبة بدرجة فظيعة، وخائرة القوى، وتبدو شبحًا، ذكرى لامرأة جميلة كانت تتمتع بالصحة. كنا نتكلم نحن - الاثنين - بصعوبة، وتتخلل كلامنا وقفات طويلة. ونلف وندور تجنبًا لمواجهة الحقيقة، وعندما قلت لها فى النهاية إنه من غير الممكن إخراجها من هنا رفعت منديلها إلى فمها وأخذت تنشج باكية فى بطء وبشكل مؤلم، كما لو أنها أدركت أن خلاصها غير ممكن. وهبت الريح عبر النافذة المفتوحة وكانت أيضًا ثقيلة ومظلمة مثلما كانت فى تلك الليلة من أكتوبر. والرائحة النفاذة لزهور الزيزفون والتى تملأ الغرفة خنقتنى. وأمى تواصل الآن نشيجها فى السر. ألمها وفقدانها الأمل أفقدانى الشعور وحطمانى. لكننى سأعمل كل ما يمكن لإنقاذها حتى لا أتركها فى هذا

الجحيم، فهى تحس بأن الليل يطبق عليها ويحاصرها بين الأشباح وتمسى وحدها، بلا حماية...

وقررت عندئذ أن أبقى إلى جوارها وأخلصها مما هى فيه. طلبت أن يضعوا لى سريرًا إضافيًا، وأخبرتهم أننى سأقضى الليالى القادمة مرافقًا لها، لا أن أحدًا لم يفاجأ بقرارى.

وفى تلك الليلة الأولى التى قضيتها مع ماما فى ستشفى، تعشينا معًا لحم ضأن تم إنضاجه فى لفرن، وتفاحًا محفوظًا، وقهوة باللبن، وبسكويتًا. واستردت أمى الكثير من حيويتها لمجرد وجودى فقط. تعشت بشهية لم يسبق لها أن تناولت طعامها بها، وبعدما دخنا عدة سجائر، كما هى عادتنا فى البيت، تحدثنا بشكل هادئ.

وحوالى الساعة العاشرة ليلاً دخلت علينا الغرفة الآنسة «إدوفيدجيس» لكى ترتب سرير ماما وتلقى نظرة على الساق المكسورة، وتتأكد أنها فى وضعها الصحيح الذى ستظل عليه طوال الليل. راقبتهما بانتباه كبير، لكن سلوك كلتيهما كان طبيعيًا تمامًا. نظرت نحو المرآة، كان هناك انعكاس صورة الآنسة «إيدوفيدجيس»، طويلة، نحيلة جدًا، تقريبًا كانت جلدًا على عظم، فى وجهها سماحة وقبول، محاط بإطار من الشعر الحريرى الكستنائى وتبرز أمام العينين عدستان سميكتان لمن هم قصار النظر. والمرآة عكست هذه الصورة كاملة وبدقة خلال عدة دقائق. وأمى

كانت هادئة، ولا تبدو متوترة... وواصلنا حديثنا وانشغلنا بما ننوى أن نقوم به: بيتنا يحتاج، ومنذ وقت طويل، إلى إعادة ترتيب، وبشكل أفضل. فمنذ وفاة أبى لم نكن قد قمنا بعمل أى شىء فيه. أنا اقترحت تكليف مهندس معمارى متميز بتجديد البيت، ولكن ماما كان من رأيها أن ذلك سيكلفنا كثيرًا جدًا، واقترحت أنه من الأفضل أن نوفر عددًا من العمال يعملون تحت أيدينا وأن نشرف نحن على المسألة برمتها حسبما نريد...

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ليلاً، وأنا بدأت أشعر بالقلق أمام ما سوف يأتى، شرعت فى خلع ملابسى ببطء وبكل حرص تفاديًا لأية حركة مفاجئة قد تفضح عصبيتى، وقد تضعها أمى فى تقديرها للمسألة. كنت أريد قبل كل شىء، أن أبقى على حالة التواصل معها بما يكون مصدرًا للطمأنينة لها. وطويت البنطلون بما يتفق مع خطوط القماش، وجعلته بجوارى فوق ظهر الكرسى، بجوار الحقيبة، والقميص، ثم استلقيت بالبيچامة على السرير دون أن أحدث صوتًا أو أجعلها تجزع، ومن هنا بوضعى هذا على السرير يمكننى أن أطل وبلا أية صعوبة على سرير ماما وعلى المرآة.

بعدما بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف، بدأت ماما تقلق، تهز يديها باستمرار وتعتصرهما، ثم رفعتهما إلى وجهها، وكان جبينها غارقًا فى العرق فلم أستطع مواصلة الكلام معها. وقبل الثانية عشرة

ببضع دقائق جاءت الآنسة «إيدوفيدجيس»، وهى تحمل صينية وعليها كوب الماء والقرص فى الملعقة. وما أن دخلت علينا حتى نهضت جالسًا فوق الوسائد لكى أراقب الأمور بشكل أفضل. ووصلت هى حتى سرير ماما وخلال الوقت الذى سألتها فيه: "كيف تحسين بنفسك الآن يا سيدتى؟" كانت تقرب من فمها الملعقة بقرص الدواء حتى تأخذه؛ فى هذه اللحظة صرخت ماما فنظرت أنا فى التو إلى المرآة، وهناك، فى المرآة، لم تكن صورة إيدوفيدجيس منعكسة عليها. والمرآة كانت خاوية تمامًا، ومعتمة، ومكفهرة. وفجأة أحسست بأن شيئًا ينتفض مهتاجًا بداخلى، ربما تقلصت المعدة بعد أن عانت خواءً فظيعًا بداخلى مماثلاً للذى فى المرآة...

- ماذا جرى يا سيدتى، ماذا جرى؟

سمعت ما قالته الممرضة ولم أستطع أن أبعد نظرى عن المرآة.

الآن هى تمتلك تقريبًا البرهان على ما يمت بصلة إلى ذلك الخواء، إلى ذلك العدم، فقد انبثق شىء ما، لا أعرف ما هو، لكنه الشىء الذى لابد أن يكون ما لم يسمع به من قبل، شىء رهيب، ونظرتها؛ لا أنا ولا أحد يستطيع تحملها... شعرت بنفسى وأنا أرتجف، وعرق بارد يجرى فوق جبينى. هذا الكرب الشديد الذى يجتاحنى وبدأ بإحساسى به فى معدتى راح يتزايد، ويتزايد بشكل لم أستطع إزاءه أكثر من أن

أطلق صرخة مخنوقة، وأخفى وجهى بيدىَّ... سمعت المرضة وهى تخرج جارية، وبذلت جهدًا خارقًا حتى وصلت إلى سرير ماما. كانت ترتعد من أخمص قدميها حتى قمة شعر رأسها، ولونها استحال إلى زرقة تميل إلى السواد، وفى نظرتها تعبير عن ضياع، وهى تبدو محمومة. أمسكت بيديها وضغطت عليهما بقوة، وأدركت هى فى هذه اللحظة؛ أننا شريكان فى ذلك الكابوس الرهيب.

وفى هذه اللحظة رجعت المرضة «إيدوفيدجيس» يصحبها اثنان من الأطباء:

- دائمًا يحدث هذا الشىء نفسه، ليلة بعد ليلة - يقولان هذا وهما يتجهان نحوى - ففى الساعة ذاتها تحدث هذه الاضطرابات العقلية. لم أفتح فمى بأى تعليق أمامهم، وعرفت أننى لا أستطيع التلفظ ولا بكلمة واحدة.

- أعطِها حقنة سيبينال - كان هذا ما أمرت به «إيدوفيدجيس»، وبعد ذلك خرجوا هم الثلاثة.

وعادت المرضة بسرعة بالحقنة، وعندما كانت تتكلم مع أمى تجاسرت أنا ونظرت إلى المرآة، وهناك فى المرآة كانت تنعكس صورتها، وسرير أمى، وملامحى المتقعة اللون.

كانت الساعة وقتها الثانية عشرة وعشرين دقيقة.

وعلى مدى خمسة أيام، عانينا ليلة فليلة، أمى وأنا من ذلك الكابوس الرهيب من المرآة. لقد أدركت حينئذ

ما طرأ على أمى وعانت منه، انغلاقها على نفسها، وفقدانها الأمل، افتقاد الكلمات التى تصف تلك السلسلة المتصلة من المشاعر، والتى يظل الإنسان يقاسى منها حتى فقدان الأمل، وكل مرة يلح هاجس من أن شيئًا سيخرج عليه فجأة، قافزًا ومقتربًا أكثر منه، هكذا، وفى التو، وهو لا يستطيع احتماله، ونحن نعرفه جيدًا. عندها فكرت بأن الحل الوحيد يمكن أن تقوم فكرته على تغطية المرآة. سيكون ذلك مثل إقامة حائط لا يمكن اختراقه. حائط لينقذنا من...

وقررنا تغطية المرآة بملاءة سرير. وحوالى الحادية عشرة ليلاً قمت لأنفذ خطتنا. ولما حضرت الآنسة «إيدوفيدجيس» كانت المرآة مغطاة. تبادلنا أنا وأمى النظرات معجبين بأنفسنا لأن تقديرنا كان سليمًا، وبذلك حَلّلنا اللغز. ولكن فجأة، ومن تحت الملاءة التى غطينا بها المرآة، بدأت تتبدى هيئة مخلوقات لا شكل لها... كتل داكنة معجونة من طينة البشر، تتحرك وهى فى حالة من الكرب، ثقيلة كما لو أنها تحاول بجهد لا طائل من ورائه أن تجتاز عالمًا ما أو حتى الزمن نفسه. لحظتها أحسسنا بأنات موسيقى كئيبة بداخلنا نحن أنفسنا، موسيقى مؤلمة كما لو أنها محاولات صرخات، ربما لأصوات غير واضحة المعالم، والكلمات خارجة من ذلك العالم نحن ـ المعزولين ـ عنه بإرادتنا وبمخاوفنا. نحن كشفناهم وهم يجتازون بألف سيف من موسيقى مؤلمة، ويائسة، وبلا أمل.

وفى الثانية عشرة وخمس دقائق انتهى هذا كله. اختفت أشباح المخلوقات من تحت الملاءة، وتوقفت الموسيقى... والمرآة بقيت صماء. أما الآنسة «إيدوفيدجيس» فخرجت من الغرفة مذهولة من كون ماما لم تهاجمها النوبة كعادتها كل ليلة.

وعندما بقينا بمفردنا، دخل فى روعى، أننا كلانا نبكى فى صمت. تلك الأشباح التى لا شكل لها، والمحبوسة، وكفاحها هذا الذى بلا أمل، وغير المجدى، هو نحن الذين نتمزق من الداخل. أدركنا نحن ـ الاثنين ـ لحظتها كل بلادة أحاسيسنا، وحماقاتنا.

لن نعود لتغطية المرآة بعد ذلك. لقد كنا مختارين لمثل هذه الأمور لنتقبلها بلا نكران لها، ولا عنف تجاهها، بل وحتى، أجل، مع فقدان الأمل مما لا برؤ، ولا مفر منه.

# موسى وجاسب

وصل القطار حوالى الساعة السادسة صباحًا فى أحد أيام نوفمبر الرطبة والباردة. وهكذا لم يتبينه بسبب الضباب. رفعت ياقة البالطو الفرو العالية، وكبست القبعة برأسى حتى الأذنين، ومع ذلك فلقد اخترقت برودة الضباب جسمى حتى العظم. شقة «ليونيداس» كانت توجد هناك. عثرت عليها فى حى بعيد عن وسط البلد، فى الدور السادس وفى عمارة متواضعة، كل شىء فيها: السلم، والممرات، الشقق كان الضباب يغلفها ويخترقها، وأثناء صُعودى المتواصل اعتقدت أننى سأبلغ الأبدية من كثافة الضباب ووطأة الصمت. «ليونيداس»، يا أخى، أمام باب شقتك أحسست بأننى ميت من التعب! كنت قد جئت لزيارتك، فى السنة الماضية، فى إجازة عيد الميلاد. على العشاء أكلنا من لحم الديك الرومى المحشو بالزيتون، وأبى فرو (الكستناء)، وكريمة إيطالية

مضروبة فى الخلاط، وفواكه مجففة ومسكرة. قال لى ووجهه يشع بالفرحة: "موسى، جاسبار إننا فى العيد!" كانت الأيام كلها عيد. شربنا كثيرًا، وتكلمنا عن أبوينا، وعن الفطائر المحشوة بالتفاح، عن سهر الليالى بجوار نار المدفأة، عن البايب الخاص بالعجوز، ونظرته وهو مطأطئ الرأس وشرود فكره الذى لا يمكن أن ننساه. وعن شغل السويترات التى كانت ماما تشغل نفسها به لفصول الشتاء من أجلنا، وعن تلك الخالة التى أخفت أموالها، وماتت من الجوع، عن مدرس الحساب بياقات قميصه المنشاة المتأنقة وكرافتاته من شريط معقود (پابيون)، وعن البنات العاملات بدكان البقالة، واللاتى يدعوهن للذهاب إلى السينما بصحبته أيام الآحاد، وعن تلك الأفلام التى لا نتابع مشاهدتها، وتلك المناديل وعليها آثار أحمر الشفاه، والتى كان علينا أن نلقى بها فى أى صندوق للقمامة. ومن تعبى نسيت أن أطلب من المرأة البوابة أن تفتح لى شقة «ليونيداس». وكان لابد من إيقاظها. صعدت وهى نصف نائمة، تنتزع قدميها انتزاعًا. وهناك كان موسى وجاسبار، ولكنهما ما أن وقع نظرهما علىَّ حتى اختفيا وتبخرا. وقالت لى المرأة إنها كانت تأتى لهما بالطعام مرتين فى اليوم. ومع ذلك كانا يبدوان لى ضامرين تمامًا.

ـ كان مرعبًا، السيد كراوس، بتلك العيون التى رأيتها هنا، فى هذا المقعد، كما لو أنه يستلقى على مائدة. موسى وجاسبار كانا مرتميين على قدميه،

واعتقدت فى أول الأمر أنهم نائمون كلهم. ما أشد الهدوء الذى كانوا فيه! لكن الوقت كان بالفعل متأخرًا. واستيقظ السيد ليونيداس مبكرًا وخرج لشراء الطعام لموسى وجاسبار، أما هو فتناول طعامه فى وسط البلد، أما فيما يخصهما فإنه يترك لهما دائمًا وفرة من وجبات الطعام، وفجأة خمنت أن...

أعددتُ قليلاً من القهوة، وانتظرت وأنا أطمئن نفسى بما يعيننى حتى أتمكن من الوصول إلى توكيل ترتيب الجنازات وإعداد الموتى للدفن. ليونيداس، ليونيداس، كيف أمكن أنك، ليونيداس القوى، صرت غير قادر على الحركة فى ثلاجة الموتى...!

فى الساعة الرابعة وقت العصر كان الدفن. وكان البرد والمطر شديدين، وكل شىء صار رماديًا، وما كانت تكسر رتابة هذا اللون، هى المظلات الواقية من المطر، والقبعات السوداء، والمعاطف، والوجوه التى غامت وسط الضباب والمطر. وكان من شاركوا فى الدفن أعداد كيفية من الأشخاص، ربما هم زملاء ليونيداس فى العمل، وبعض الأصدقاء. ولقد أثار ذلك فىَّ أكثر الأحلام مرارة، وتمنيت أن أتجاوز محنة فقده هذه. وفى اليوم التالى استيقظت بدون هذه الغصة فى الحلق، وذلك التمزق الشديد فى العمق الذى أرهق عقلى تمامًا. قسيس عجوز لكى يتلو الصلوات ويمنح القبر بركته... وبعد ذلك، شخص ما، وهو شخص لا أعرفه، قدم لى سيجارة، وأخذنى من ذراعى بألفة،

معبرًا لى عن مشاركته لى فى الأحزان. وخرجنا من المقابر، وهناك بقى ليونيداس للأبد.

سرت وحيدًا بلا هدف، تحت وابل المطر الرتيب المستمر، بلا أمل، بنفس مكسورة، أما ليونيداس، فقد انتهى، وانتهت بموته، السعادة الوحيدة لى فى الحياة، فقد كان هو المخلص العظيم الوحيد، الذى جعلنى مرتبطًا بالأرض، والذى لم يكن ممكنًا أن ينفصل أحدنا عن الآخر منذ كنا أطفالاً. لقد أبعدتنا الحرب خلال سنوات عديدة، والتقينا بعد القتال والوحدة، وجنينا أعظم سعادة فى حياتنا. وحتى الآن بقينا نحن - الاثنين - فقط، ومع ذلك، فما أسرع ما فكرنا فى أنه لا بد لنا من العيش معًا، كل منا بجانب الآخر. وهذا ما فعلناه بالفعل. فخلال تلك السنوات استطعنا أن نحصل على ما نحتاجه عادة، فسكنا، بحرية مطلقة. وعثر ليونيداس على وظيفة صراف فى بنك، وتوظفت أنا محاسب فى شركة تأمين. وخلال الأسبوع كل واحد منا يعيش مكرسًا وقته كله لعمله، أو فى وحدته. لكن أيام الآحاد كنا نقضيها معًا على الدوام. وحينئذ كنا سعداء جدًا، وأستطيع أن أؤكد أن الاثنين اللذين كنا ننتظرهما وصلا فى ذلك اليوم.

وفى وقت ما بعد ذلك، نقلا ليونيداس إلى مدينة أخرى، واستطاع أن يتفانى فى البحث عن عمل آخر، فهو مع ذلك يتقبل هذه الأمور دائمًا فى هدوء. "ليس مجديًا أن تقاوم، فنحن يمكننا أن نقوم بألف جولة

ونصل دائمًا إلى النقطة التى بدأنا منها.". كنا سعداء جدًا، شىء ما لابد أن يستمر، فالسعادة لها ضريبتها... هذه كانت فلسفة ليونيداس، وهو كان يتقبل الأمور بلا اعتراض. "هناك أمور تأتى عكس ما نحب، وتلك هى التى لا يمكننا مقاومتها يا عزيزى خوسيه...".

لقد رحل ليونيداس فى أيام كانت قسوتها أكثر من أن تحتمل غيابه؛ وبعد ذلك، أخذنا بتأنٍ فى ترتيب عزلتنا: فنكتب لبعضنا مرة أو مرتين فى الشهر، أما أيام إجازاتى فكنت أقضيها معه، وهو يأتى ليرانى فى أيام إجازاته، وهكذا كنا نقضى أيامنا...

كان الوقت ليلاً عندما عدت إلى شقة ليونيداس. كان البرد شديدًا، والأمطار كانت متواصلة، وكنت أحمل تحت إبطى زجاجة روم كنت قد اشتريتها من محل بقالة وجدته مفتوحًا. كانت الشقة مظلمة تمامًا، ومتثلجة من شدة البرد. دخلت أتخبط فى كل شىء. أضأت النور، وشغلت المدفأة. نزعت غطاء الزجاجة بعصبية وبيدين مرتجفتين وبطيئتين... وهناك على المائدة، فى الموضع الذى كان يشغله ليونيداس لآخر مرة؛ جلست لأشرب كى أخفف عذابى، وعلى الأقل فإننى وحدى ولست مضطرًا لإخفاء عذابى أمام أحد. كان يمكننى أن أبكى، أصرخ و... فجأة شعرت بعيون ورائى. قفزت من المقعد والتفت ورائى؛ كانا هناك موسى وجاسبار. كنت قد نسيت وجودهما تمامًا، إلا أنهما كانا يحدقان فىَّ بثبات. ولا أعرف ماذا أقوا

عن نظرتهما إلىَّ، وإذا ما كانت نظرة مرحبة أم مرتابة، لكنها ليست سوى نظرة منزعجة بشكل مخيف. ولم أنجح فى التحدث معهما فى تلك اللحظة، ما كنت أحسه بالكامل هو الفراغ، والغياب، كما لو أنه خارج عنى دون قدرة على التفكير بشىء، بالإضافة إلى أننى لا أعرف إلى أى حد هما يدركان الأمور... واصلت الشرب... وحينئذ أدركت أنهما يبكيان فى صمت، والدموع تنهمر من عيونهما وتتساقط على الأرض بدون أى تكشيرة، ودون أى صراخ. وعند منتصف الليل، عملت قهوة، وأعددت لهما شيئًا ليأكلاه. لم يحاولا تناول لقمة، وواصلا بكاءهما المفجع المدمر...

ليونيداس كان قد قام بترتيب أموره. وربما أحرق أوراقه، لأننى لم أعثر على ورقة واحدة فى الشقة، وأظن أنه باع الموبيليا متعللاً بالسفر: هم سيذهبون للعودة إلى مكانهم فى اليوم التالى. أما الثياب وبقية الحاجيات الشخصية، فكانوا قد أتموا تعبئتهم بعناية فى صندوقين للملابس وعليهما بطاقات كتب عليها اسمى. والمال، الذى دفعوه له مقابل الموبيليا، كان مودعًا فى البنك، وأيضًا باسمى. كل شىء كان مرتبًا بعناية. وما أوصانى به فقط كان دفنه، وأن أكون وصيًا على موسى وجاسبار.

قرب الرابعة صباحًا، غادرنا إلى محطة السكة الحديدية: وقطارنا قام فى الساعة الخامسة والربع. وموسى وجاسبار كان لابد وأن يسافرا، مع كراهيتنا

الشديدة لذلك، فى عربة البضائع، إذ أنها بلا مقابل، وكان ذلك مسموحًا به للمسافرين. كم كانت سفرية متعبة! كنت قد هلكت جسمانيًا ومعنويًا، وتحملت أربعة أيام بلياليها بلا نوم أو راحة منذ أن وصلنى التلغراف بخبر وفاة ليونيداس. حاولت أن أنام خلال السفرية، وكانت لحظات فقط تلك التى استغرقت فيها فى النوم. فى المحطات التى يقف فيها القطار وقتًا أطول؛ ذهبت للاطمئنان على موسى وجاسبار، وما إذا كانا يريدان شيئًا من الطعام. نظراتهما آذتنى. بدت نظراتهما وكأنها تحملنى الذنب فى وضعهما... وأنا لا ذنب لى، حضراتكما تعرفان جيدًا، وكررت ذلك لهما فى كل مرة، لكنهما لم يقدرا أو لم يريدا أن يفهما ذلك، ورأيت أنه من الصعب جدًا عليهما أن يعيشا معى، وأنهما لم يحسَّا أبدًا بالميل نحوى. بل أحسا بعدم الراحة فى حضورى كرقيب عليهما. كان شيئًا بغيضًا أن أصادفهما فى بيت ليونيداس فى الصيف الماضى! وليونيداس تحاشى أسئلتى عنهما وشرح لى أنهما هكذا فى أحسن أحوالهما، وأننى سأحبهما وسأكون صبورًا معهما. وقال لى: "إنهما بالغا الكرم فى لطفهما هذان التعيسان" فى تلك المرة، كانت وظائفنا مرهقة وشاقة، ولا يكفى القول بأن الشىء الوحيد الذى قمت به حتى أرى ليونيداس ملأنى بالسعادة... وهو بالفعل لم يرنى بعدها. ولذلك لم أستطع تركهما وحدهما موسى وجاسبار. وفى السنة التالية، وهى المرة الأخيرة التى كنت فيها مع

ليونيداس، مضى كل شىء بشكل أكثر من العادى. صحيح أننى لم أرق لهما، ولم يروقا لى، إلا أنهما لم يسببا لى بالفعل مضايقات كثيرة... ولم أعرف كيف توصلا إلى العيش مع ليونيداس... والآن هما معى، بوصية، وبميراث آل إلىَّ من صديقى الذى لا يمكن نسيانه ليونيداس.

بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، وصلنا إلى بيتى. كان القطار قد وصل متأخرًا عن موعده بأكثر من أربع ساعات، وكنا نحن - الثلاثة - قد هلكنا. وما أمكننى أن أقدمه لموسى وجاسبار للأكل كان فقط قليل من الجبن وفاكهة. أكلا بلا حماس، ونظرا إلىَّ بارتياب. ألقيت لهما بعض الأغطية فى الغرفة ليناما، وأغلقت علىَّ أنا باب غرفتى وتناولت قرصًا منومًا.

اليوم التالى كان يوم أحد. وذلك أنقذنى من الذهاب إلى العمل، ومن ناحية أخرى فأنا لم أكن قادرًا على القيام به. كان فى نيتى الاستغراق فى النوم حتى وقت العصر. ولكن فى وقت مبكر جدًا، كما لو أنه بسبب النور بدأت أسمع جلبة. كانا هما اللذان قاما من النوم وأخذا يتمشيان من ناحية للثانية فى الشقة، حتى وصلا إلى غرفتى، وظلا ملتصقين بالباب. كما لو أنهما يحاولان اختلاس النظر من خلال فتحة المفتاح أو ربما يريدان فقط التصنت لسماع صوت تنفسى ليعرفا إن كنت مازلت نائمًا. وعندها تذكرت أن ليونيداس كان يأتى لهما بالإفطار

فى الساعة السابعة صباحًا، وكان علىَّ أن أقوم من نومى لأبحث لهما عن طعام.

كم كانت قاسية وصعبة تلك الأيام التى تلت وصول موسى وجاسبار إلى بيتى!. كنت معتادًا على الاستيقاظ من النوم قبل الساعة الثامنة بقليل، لأعد لنفسى القهوة، وأخرج للعمل فى الثامنة والنصف؛ لأن الأتوبيس يتأخر فى وصوله، وعملى يبدأ فى الساعة التاسعة.

مع وصول موسى وجاسبار ارتبكت حياتى كلها. فلابد أن أقوم فى الساعة السادسة كى أذهب بنفسى لأشترى اللبن وبقية ما نحتاجه من الطعام، وبعدها أعد الإفطار لهما ليتناولاه فى السابعة بالضبط، كما تعودا عليه. ولو تأخرت يغضبان، كما يسبب لى ذلك، الخوف، لأننى لا أعرف ما هى الحدود التى يمكن أن تصل إليها حمى غضبهما. وكان علىَّ، يوميًا، أن أرتب الشقة، لأنه منذ أن وجدا هنا، صار كل شىء يطاح به بعيدًا عن مكانه.

لكن ما كان أكثر تعذيبًا لى، هو عذابهما الميئوس منه، ذلك البحث عن ليونيداس وانتظاره ومراقبة الأبواب. وأحيانًا عندما كنت أعود أنا من العمل، يجريان نحوى مخبولين، لكن عندما يكتشفان أننى أنا تبدو على وجه كل منهما خيبة الأمل، وما يعانيانه يجعلنى أنهار باكيًا معهما فى وقت واحد. وهذا كان الشىء الوحيد الذى نتشارك فيه. وكانت هناك الأيام

التى، تقريبًا، لا يستيقظان فيها؛ وتمر فيها الساعات بلا فائدة، فلا نشاط، ولا اهتمام بشىء. كنت أحب أن أعرف ما الذى يفكران فيه وقتها. وفى الحقيقة فأنا لم أوضح لهما شيئًا عندما ذهبت لآخذهما إلى بيتى، ولا أعرف إن كان ليونيداس قال لهما شيئًا عن ذلك، أو أن هناك شيئًا يعرفانه...

كان قد مضى ما يقرب من الشهر منذ إقامة موسى وجاسبار معى، عندما انتبهت إلى المشكلة الخطيرة التى راحا يسببانها فى حياتى، إذ كان لى منذ سنوات عديدة علاقة حب مع عاملة الخزينة فى المطعم الذى اعتدت أن أتناول طعامى به. وصداقتنا بدأت بشكل بسيط؛ إذ أننى لم أكن رجلاً من النوع الذى يغازل النساء، أنا ببساطة فى حاجة إلى امرأة، و«سوسى» حلت لى هذه المشكلة. فى الأول، كنا نرى بعضنا من وقت لآخر، وأحيانًا كان يمر الشهر أو الشهران نتبادل فيهما التحية فقط فى المطعم بانحناءة من الرأس مثل الذين تربطهم معرفة بسيطة. كنت أعيش فى هدوء خلال فترة من الزمن دون أن أفكر فيها، لكن فجأة ظهرت علىَّ مرة أخرى أعراض قديمة ومعروفة من مرض عصبى، نوبات تصرفات حادة ومفاجئة، واكتئاب. وعندئذ طلبت «سوسى»، ورجع كل شىء لوضعه الطبيعى، وصار بعد ذلك شيئًا تعودنا عليه. كانت زيارات «سوسى» تتم مرة كل أسبوع. وعندما أذهب لدفع الحساب بعدما أتناول طعامى، أقول لها: "هذه الليلة يا «سوسى»." فإن لم

تكن مرتبطة بشىء، إذ أن لديها التزامات أخرى، ترد علىَّ: "سيكون هذه الليلة." أو تقول: "ليس هذه الليلة،غدًا لو حضرتك موافق". ارتباطات «سوسى» لا تسبب لى أى قلق، فلا شىء يفرض التزامًا على أى منا تجاه الآخر، ولا شىء خاص على الإطلاق. و«سوسى» تتقدم فى العمر، وتزداد سمنة، وأبعد ما تكون عن أن توصف بأنها امرأة جميلة، ومع ذلك، فرائحتها طيبة، وتلبس دائمًا ملابس داخلية من الحرير مطرزة بالدانتلا، مما يؤثر بشكل ملحوظ فى نفسى. أنا لا أتذكر أبدًا ولا واحد من فساتينها، لكن أذكر قمصان نومها التى تتقلب بخفة. وهى لم تكن تتكلم أبدًا خلال ممارستنا للحب، ويبدو أن الاثنين اللذين كنا هما كانا غائرين بشكل بعيد الغور داخل كل منا، كلينا نحن. وفى الوداع كنت أعطيها مبلغًا من النقود. "أنت حضرتك كريم جدًا" تقول لى ذلك وهى راضية، لكن خارج هذا اللطف المعتاد، لم تكن تطلب منى شيئًا أبدًا. إلا أن موت ليونيداس أربك علاقتنا التى تعودنا عليها، فقد مر أكثر من شهر قبل أن أطلب سوسى. كنت أعيش هذه الفترة كلها منهكًا مستسلمًا للعذاب واليأس الذى أتقاسم أكثره مع موسى وجاسبار اللذين كانا شديدى الغرابة بالنسبة لى كما كنت أنا بالنسبة لهم. وفى تلك الليلة كنت فى انتظار «سوسى» على ناصية المطعم، كالعادة، وصعدنا إلى الشقة. وكل ما حدث تم بسرعة شديدة والذى بذلت جهدًا لأفهمه. فعندما مضت «سوسى» داخلة إلى

غرفة النوم فوجئت بموسى وجاسبار وكانا منزويين فى الركن وخائفين خلف الأريكة. وشحب وجه «سوسى» بالشكل الذى جعلنى أعتقد أنه سيغمى عليها وصرخت بعد ذلك كالمجنونة ثم اندفعت بسرعة جارية ونازلة على السلم وأنا أجرى وراءها، وصارت محاولة تهدئتها أمرًا بالغ الصعوبة. بعد الذى حدث لسوء الحظ، لم ترجع «سوسى» إلى شقتى بعد ذلك. وعندما كنت أريد أن أراها، كنت أضطر إلى تأجير غرفة فى أى فندق، وذلك ما لا يتفق مع ميزانيتى، ويسبب لى الضيق.

هذا الذى حدث مع «سوسى»، كان الأول فقط من سلسلة مصائب. ففى يوم قال لى بواب العمارة:

ـ يا سيد كلاوس، كل المستأجرين جاءوا ليشتكوا لى بسبب الضجيج غير المحتمل الذى يبدأ فى شقتك فى وقت مبكر جدًا بمجرد خروج حضرتك للشغل.

ورجانى أن أحل هذه المشكلة. وبعدها كان هناك أشخاص مثل الآنسة إكس X والسيد «أ» واللذين نزلا إلىَّ بالليل، وقالا لى إنهما يحتاجان لأن يناما بالنهار.

ذلك أربكنى، فلم أعرف كيف أفكر. ومضايقات مثل التى يحدثها موسى وجاسبار بسبب فقدهما لمن كان يتولى أمرهما، والذى جعلهما يعيشان فى صمت، على الأقل هكذا، أثناء وجودى فى الشقة. ولما رأيتهما، وقد حُطَّ من قدرهما، ومنكسرى النفس، لم أقل لهما

شيئًا؛ بدوت أمام نفسى قاسيًا، وعلاوة على ذلك، لم يكن لدىَّ دليل ضدهما...

وبعد عدة أيام قال لى البواب:

- يؤسفنى ويصعب علىَّ العودة إلى المشكلة نفسها؛ لكن المشكلة أصبحت لا تحتمل بالفعل. ففى وقت مبكر جدًا، وبعدما خرجت حضرتك، بدءا فى رمى أوانى المطبخ على الأرض، وأوقعا الكراسى، وأخذا يحركان الأسرة والموبيليا كلها، وانطلقت صرخاتهما. صراخ، صراخ، إنهما مرعبان يا سيد كلاوس، ونحن لا يمكننا التحمل أكثر من ذلك، وهذا يستمر طوال النهار إلى أن تعود حضرتك.

قررت التأكد من ذلك فطلبت من المكتب إذنًا بالخروج لمدة ساعة. وصلت فى منتصف النهار. وجدت أن البواب والكل عندهم حق. فالعمارة بدت لى وكأنها سوف تنهار من شدة الضجيج الذى لا يمكن احتماله والصادر من شقتى. وما أن فتحت الباب حتى فوجئت بموسى واقفًا فوق الموقد، ومن مكانه هناك يقذف جاسبار بالكاسارولات والذى كان يجرى منه تفاديًا للقذائف وهو يطلق الصرخات والضحكات كالمجنون، كانا مندمجين فى لعبهما بحماس شديد للدرجة التى لم يعملا فيها حسابًا لوجودى. كانت الكراسى مطروحة على الأرض، والوسائد مرمية فوق المائدة، وعلى الأرض. وما أن رأيانى حتى تسمرا فى مكانهما كالمشلولين وصرخت فيهما غاضبًا:

- أنا لا يمكن أن أصدق ما أراه بعينى. لقد وصلتنى الشكاوى من الجيران كلهم، ورفضت أن أصدقهم. حضراتكم ناس، ناس ناكرون للجميل، وتكافئوننى على حسن ضيافتكم بالإساءة ولا تبقون على ذكرى ولى نعمتكم، وموته صار كأنه شىء ومضى، وصار شديد البعد حتى أنه لم يعد يسبب لكما ألمًا. وما يهمكم هو اللعب فقط، صغار عديمو التربية، صغار ناكرون للجميل...!

وعندما انتهيت من كلامى، تخيلت أنهما ارتميا على الأرض وانخرطا فى البكاء، وهكذا! تركتهم ورجعت إلى مكتبى. وظل مزاجى سيئًا طوال اليوم، وعندما عدت فى المساء، كان البيت مرتبًا، وهما لائذين بدورة المياه. عانيت وقتها من مشاعر رهيبة بتأنيب الضمير، إذ أحسست أننى كنت بالغ القسوة مع تلك الكائنات المسكينة. ربما فكرت أنهما لا يدركان أن «ليونيداس» لن يعود أبدًا، ربما يظنان أنه مسافر فقط، وأنه سيعود يومًا ما، وبقدر ما تتزايد الآمال فى عودته، تقل معاناتهما. لقد أفسدت عليهما فرصتهما الوحيدة، لكن نوبات تأنيب الضمير انتهت فجأة، إذ عرفت فى اليوم التالى؛ أن كل شىء عاد يحدث بنفس الطريقة، الضجيج، والصرخات...

عندئذ طلبوا منى إخلاء الشقة بحكم قضائى، وبدأت بذلك رحلة التشرد من مكان إلى آخر، شهر هنا، وشهرٌ هناك. وفى تلك الليلة أحسست بأننى

منهك بشكل فظيع، ومكتئب بسبب سلسلة من المصائب التى حوطتنى. أخذنا شقة مكونة من حجرة ضيقة، ومطبخ، وحمام، وغرفة نوم واحدة. قررت أن أنام. وعندما دخلت الغرفة فوجئت بهما نائمان فى سريرى، عندها تذكرت المرة الأخيرة التى زرت فيها «ليونيداس»، ليلة وصولى نفسها، أن أخى كان قد وضع سريرين فى الغرفة: "موسى وجاسبار ناما فى غرفة النوم، وعلينا الآن أن نأخذ راحتنا هنا." كان فيما قاله لى الكفاية، لكنى لم أفهم فى ذلك الحين كيف استطاع «ليونيداس» أن يلبى رغبة هذين المسكينين. والآن فهمت، فمنذ احتلالهما لبيتى ذلك اليوم، وأنا لا أستطيع عمل شىء للخلاص منهما.

لم تكن لى أبدًا مع الجيران علاقات حميمية، لما أبدو عليه من الإرهاق الشديد. فكنت أفضل عزلتى عنهم، وأن أحيا بشكل مستقل. ومع ذلك، كنا نتبادل التحية عند التقائنا على السلم، وفى الممرات، وفى الشارع... ومع وصول موسى وجاسبار تغيرت الأمور... ففى كل الشقق التى قضينا فيها وقتًا قصيرًا جدًا اكتسبت كراهية الجيران الوحشية، ووصلت للحظة التى كنت أخاف فيها من الدخول إلى العمارة أو الخروج من الشقة. وعند عودتى متأخرًا فى الليل، بعد أن أكون قد أمضيت وقتًا مع «سوسى»، أخاف أن أكون بادئًا بالشر. إذ أسمع الأبواب التى تفتح عند مرورى، ووقع خطوات خلفى، تتحرك بخفة، وفى

صمت، تنفس شخص ما، وعندما، فى النهاية، أدخل شقتى، أكون تقريبًا قد استحممت فى عرق بارد، وأنا أرتعد من أخمص قدمى إلى قمة رأسى.

وفى فترة وجيزة، كان لزامًا علىَّ ترك وظيفتى، خوفًا من أننى لو تركتهما وحدهما، فيمكن أن يقتلوهما. كان هناك من الكراهية فى عيون الجميع القدر الذى ربما تكون نتيجته بسهولة؛ كسر باب الشقة، أو ربما يضطر البواب أن يفتحه لهم بنفسه، فهو أيضًا يكرههم. تركت العمل، وبقيت معى فقط كمصدر للدخل؛ الكتب التى اعتدت أن أحتفظ بها فأحملها معى إلى البيت. قصص وحكايات للصغار تركوا لى عددًا قليلاً منها، والتى بمثلها لا يمكننى أن أعيش. خرجت فى وقت مبكر جدًا، مظلم تقريبًا لأشترى الوجبات التى أعدها أنا بنفسى. ولا أعود للشارع إلا عندما أذهب لأسلم أو أستلم كتابًا ما، وهذا يتم بشكل سريع، تقريبًا وأنا أجرى حتى لا أتأخر. لم أعد أرى سوسى لافتقارى للنقود، وللوقت. فأنا لا يمكن أن أتركهما وحدهما لا بالنهار، ولا بالليل. وهى لم تتنازل أبدًا وتقبل بأن تعود وتأتى إلى الشقة. وبدأت أبدد مدخراتى شيئًا فشيئًا، ثم بعد ذلك الأموال التى أوصى بها لى «ليونيداس». وكان البؤس هو ما جنيته. فلم أكن أحصل على لا ما يكفى للأكل، ولا على ما يكفى للتنقل باستمرار من منزل إلى آخر. وعندئذ اتخذت القرار بالرحيل.

وبالنقود التى مازالت معى، اشتريت دارًا قديمة عثرت عليها خارج المدينة، وقطعًا من الأثاث التى لا غنى عنها. كانت دارًا منعزلة وشبه متداعية، لنعيش هناك نحن الثلاثة، بعيدًا عن الناس كلها، وأيضًا لنتخلص من المكائد المحكمة التى تجمعها روابط خفية؛ لكن بكراهية سافرة لا مداراة فيها، وبعقل بارد، وغرض لا حل للغزه.

كل شىء كان معدًّا للرحيل، كله أو الأفضل القليل منه الموجود لحمله. «موسى» و«جاسبار» انتظرا أيضًا لحظة البدء فى التحرك. عرفت ذلك من خلال عصبيتهما. وأعتقد أنهما كانا مسرورين وأعينهما كانت تلمع. آه لو أمكننى أن أعرف ما الذى كانا يفكران فيه...!

ولكن لا فكم تحزننى إمكانية أن أغوص للإمساك بوجوده الموحش الغامض. اقتربا منى فى صمت كما لو أنهما يحاولان تشمم وجودى من تنفسى، أو يريدان معرفة ما أفكر فيه. لكننى أعرف ما يحسان به من خلال تهللهما بالفرح البادى عليهما من خلال الإحساس بروح الانتصار التى غمرتهما عندما رغبت فى إفسادها. هما يعرفان أننى لا أستطيع، وأننى أبدًا لن أستطيع تحمل أن أحقق رغبتى الأكثر تحرقًا... ولذلك استمتعا... كم من المرات كان علىَّ أن أقتلهم فيها لو كنت فى وضع يتيح لى الحرية فى أن أفعل ذلك! «ليونيداس»، «ليونيداس»، لا. ولو كان بإمكانى

لنفذت ما أمرت به!. أنت تحبنى، بلا شك، مثلما أحبك. ولكن بموتك، وما أوصيت به، فأنت تقضى على حياتى. لا أحب أن أفكر، ولا أعتقد أنك أيضًا تحب التفكير، فى اللعنة التى أورثتنى إياها. هل قررت أن تدمرنى. لا. أعرف أن شيئًا ما أقوى منا. أنا لا أحملك الذنب يا ليونيداس: لو أنك كنت قد فعلته لأنه هكذا يجب أن يكون... "يمكننا أن نقوم بألف جولة، لنصل دائمًا لنقطة البداية".

# الفهـــرس

# صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١ـ «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢ـ القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة ـ للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو ـ للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى - رواية - «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة هارتا والسيدة جيرترود ـ للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور ـ قصص جائزة چورج يوشنر ٢٠٠٥.

# يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ مارتش ـ جيرالدين بروكس ـ جائزة البوليتز ٢٠٠٦

٢ ـ العار .. ج. م. كوتس. جائزة نوبل ٢٠٠٣.

٣ ـ عن الجمال.. زادى سميث.. جائزة الأورانج ٢٠٠٦

**مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب**

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg

عذابات امرأة وحيدة تحاصرها هلاوسها حول احتلال الفئران لبيتها حتى تجن تماما فتحتضن فراءها السمور وهى تعتقد أنها قابضة على هذه الفئران ذات العيون الحمراء اللامعة... كتل داكنة من طينة البشر تتحرك فى حالة من الكرب... أشباح لا شكل لها محبوسة فى مرآة يظل الإنسان يقاسى منها حتى فقدان الأمل تماماً ويلح عليه هاجس من أن شيئا سيخرج عليه فجأة ولن يستطيع احتماله.

"حين تقطعت الأوصال" مجموعة تضم بين دفتيها اثنتى عشرة قصة بالغة التنوع تسعى بجسارة لاكتشاف العالم الداخلى الصاخب والمخيف والغامض الذى تحياه الشخصيات بعذابات لا حد لها على مستويين: الخيالى والواقعى مما يمكنها من اكتشاف لغز مأسوية الوجود فى قلب أوصال تقطعت.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥,٢٥ جنيه

ISBN# 9789774202874

